وحدانيّة تقليد (تسليم) الكنيسة ودوره في تفسير الكتاب المقدّس

الأب د. جورج عطيّة
معهد القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ اللاّهوتيّ – جامعة البلمند

التّمييز بين التّقليد المتسلّم عن النّاس والتّقليد المتسلّم عن اللّه:

يظنّ النّاس بعامّة أنّ التّقليد هو مجموعة ممارسات أو عادات أو آراء ورثوها من الشّيوخ أو الرّؤساء القدماء المؤسّسين أو البارزين في طائفتهم أو مذهبهم أو أمّتهم إلخ.... ولهذا فمن اللاّئق والواجب المحافظة عليه والدّفاع عنه والتّباهي به إكراماً لهم، حتّى لو اكتشفوا أنّه خاطئ وتجاوزه الزّمن. الدّافع الحقيقيّ الخفيّ هو رغبتهم في تعزيز الجماعة الّتي ينتمون إليها وتثبيت مكانتها وهيبتها، تأميناً لمصالحهم ونفوذهم.

هذا الموقف يشبه إلى حدٍّ بعيد موقف الكتبة والفرّيسيّين في زمن الرّبّ يسوع الّذين انتقدوا تلاميذه لأنّهم لم يسلكوا بحسب تقليد الشّيوخ فيما يتعلّق بغسل الأيدي. ولذا وبّخهم الرّبّ يسوع لأنّهم كانوا يتعدّون في كثير من الأحيان **وصيّة الله** بسبب تقليدهم من أجل مصالحهم الشّخصيّة، إذ قال لهم، من بين أمور أخرى: "فقد أبطلتم **وصيّة الله** بسبب **تقليدكم**". كما شدّد مستشهداً بنبوءة لأشعياء منها: "وباطلاً يعبدونني وهم يعلّمون تعاليم هي **وصايا النّاس**"[1]. فيما بعد، حذّر بولس الرّسول من تقاليد مشابهة حين قال لأهل كولوسي: "أنظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب **تقليد النّاس** حسب أركان العالم وليس حسب المسيح"[2].

(١) مت ١٥: ١–٩ أنظر أش ٢٩: ١٣
(٢) كول ٢: ٨.

أوّل وأشدّ الرّافضين لتقليد كهذا هم المسيحيّون المستقيمو الرّأي والممارسة. لكنّهم مع هذا يقبلون ويعيشون تقليداً من نوع آخر يختلف جذريّاً عنه. لأنّه إن كان الأوّل تسلّمه النّاس من النّاس ويحافظ عليه إكراماً للنّاس وبسبب أهواء النّاس، فالثّاني تسلّمه أنبياء العهد القديم ورسل العهد الجديد من الله نفسه بروح الله وسلّموه لشعب الله، ويحافظ عليه بروح الله من أجل خلاص الجميع وتقديسهم.

والغريب أنّ أقوى وأخلد شاهد للتّقليد المتسلّم من الله هو الكتاب المقدّس. ومع ذلك فالّذين ينادون بالكتاب المقدّس وحده (Sola Scriptura) هم، بالذّات، الّذين يناقضون الكتاب في هذا الأمر، محاولين بكلّ طاقتهم وباسم الكتاب أن يغطّوا على موقفه الأساسيّ السّاطع من التّقليد المتسلّم من الله.

كمثال بسيط ملموس على تصرفهم هذا، هو هذه التّرجمة للكتاب المقدّس الواسعة الانتشار (دار الكتاب المقدّس) الّتي استشهدنا بآياتها حتّى الآن. فلا بدّ أنّك لاحظت أيّها القارئ اللّبيب استعمالها لكلمة "تقليد" حين صار الحديث عن تقليد النّاس، لكي تظهر رفض الرّبّ يسوع له وتحذير الرّسول بولس منه، وهو أمر صحيح لا غبار عليه. لكن ما هو مناف للموضوعيّة عدم استعمالها لكلمة تقليد أو تسليم، ولو لمرّة واحدة حين ترد الكلمة اليونانيّة الأصليّة ذاتها "Παράδοσις"، "Paradosis" في معرض الحديث عن التّقليد الّذي تسلّمه الرّسل مباشره من الرب يسوع وسلّموه للكنيسة. ألا يعني هذا نفيهم لوجود التّقليد المتسلّم من الله مع أهمّيّته المحوريّة البالغة؟ وبالتّالي إظهارهم وكأنّ لا حديث في الكتاب إلاّ عن التّقليد المتسلّم من النّاس المرذول من الله؟!

وهنا قد يكون مناسباً، من أجل الموضوعيّة ذاتها، أن يقال بأن كلمة "تسليم" هي أدقّ من كلمة "تقليد" الّتي اصطلحت الكنائس العربيّة اللّسان على استعمالها في ترجمتها لكلمة "Paradosis" اليونانيّة. لأنّ جذر الفعل الأصليّ الّذي تشتقّ منه الكلمة أي "Paradid" يعني تحديداً سلّم وليس قلّد(*).بمعناه الأوّل حسب القواميس، أي حاكى فلاناً في تصرّفاته، وخاصّة أنّ معنى "سلّم" و"تسليم" ينطبق تماماً على المعنى المقصود في أسفار العهد الجديد، كما في قول بولس الرّسول مثلاً: "لأنّني تسلّمت من الرّبّ ما سلّمتكم"(٣).

(*) يمكن أن يأتي فعل قلد بمعنى سلّم في حالات خاصّة جداً مثل: قلّده وساماً أو سيفاً أو مسؤوليّةً ألخ ....
(٣) ١كو ١١: ٢٣.

ماهيّة التّقليد المتسلّم عن اللّه

١– هو إعلان الله المباشر من خلال الحضور الشّخصيّ ليسوع المسيح ابن الله المتجسّد:

وقد تمّ هذا الإعلان من خلال كرازته الشفاهيّة بملكوت السّموات[٤]، وتعليمه ووصاياه وشفاءاته وعجائبه وأعماله الخلاصيّة (مثل ولادته وصلبه وقيامته وصعوده)، وبالتّالي من خلال تسليمه ملكوت الله ذاته والّذي هو حياته الأبديّة عبر مواهبه الإلهيّة في العنصرة.

٢– هو ذاته مجموع البشارة والأسرار الإلهيّة الّتي أمر الرّبّ يسوع رسله بناءً على سلطانه الإلهيّ بالكرازة بها وتسليمها والمحافظة عليها:

"وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالبشارة للخليقة كلها"[٥].

"دفع اليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض . فاذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به"[٦].

"واخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً : هذا هو جسدي الّذي يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكري. وكذلك الكأس أيضاً ..... "[٧].

٣– هو متسلّم مباشرة من الرّبّ يسوع نفسه، وحتّى بالنّسبة للرّسول بولس، من بعد صعوده إلى السّماء:

"لأنّني تسلّمت من الرّبّ ما سلّمتكم أيضاً ..."[٨].

وإن سأل إنسان كيف تسلّم الرّسول بولس من الرّبّ يسوع البشارة والأسرار الإلهيّة كبقيّة الرّسل وهو لم يكن حاضراً معهم حينما كان الرّبّ على الأرض، يجيب هو نفسه:

---

(٤) مت ٤: ١٧

(٥) مر ١٦: ١٥

(٦) مت ٢٨: ١٨–١٩

(٧) لو ٢٢: ١٩–٢٠

(٨) ١ كو ١١: ٢٣

"وأعرّفكم أيّها الإخوة **الانجيل**(*) (البشارة الشفهيّة) الّذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان. لأنّي لم أقبله من عند إنسان ولا عُلّمته. بل بإعلان يسوع المسيح"(٩).

"فقال (حنانيا لبولس) : اله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البارّ وتسمع صوتاً من فمه. لأنّك ستكون شاهداً لجميع النّاس بما رأيت وسمعت"(١٠).

٤– هو شهادة الله نفسه وكلمة خبر منه، وبالتّالي فهو كلمة الله لا كلمة أناس:

" وأنا لما أتيت إليكم أيّها الإخوة أتيت لا بسموّ الكلام أو الحكمة، منادياً لكم بشهادة الله"(١١).

"نشكر الله بلا انقطاع لأنكم إذ تسلّمتم منا **كلمة خبر من الله** قبلتموها لا ككلمة أناس بل كما هي بالحقيقة **ككلمة الله** الّتي تعمل أيضاً فيكم أنتم المؤمنين"(١٢).

٥– هو يسلّم ويحافظ عليه بالرّوح القدس:

"لكنّكم ستنالون قوّة متى **حلّ الروح القدس عليكم** وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كلّ اليهوديّة والسّامرة وإلى أقصى الأرض"(١٣).

"إنّ "إنجيلنا" (بشارتنا الشفاهيّة) لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوّة أيضاً و**بالرّوح القدس**"(١٤).

" تمسّك بصورة الكلام الصّحيح الّذي سمعته مني في الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع. إحفظ الوديعة الصّالحة **بالرّوح القدس** السّاكن فينا"(١٥).

(*) تضع بعض الترجمات العربية للكتاب المقدس كلمة "انجيل" مكان "بشارة" على أساس أن الكلمة الأصلية اليونانية هي "Evangelion" "Euaggevlion" وبالطبع يمكن أن تكون كلمة "انجيل" صحيحة هنا اذا فهم منها بشارة شفهية وليس مكتوبة . اذ لا تعني هنا أبداً أحد الأناجيل الأربعة المكتوبة أو مجموعها أو مجموع أسفار العهد الجديد، لأن هذه جميعها لم تكن قد وجدت بعد. اضافة إلى أن ما بشّر به أوّلاً بولس أو الرّسل الآخرون بناء على ما أمر به الرّبّ كان بشارة شفهية وليس مكتوبة.

(٩) غل ١: ١١

(١٠) أع ٢٢: ١٤

(١١) ١ كو ٢: ١

(١٢) ١ تس ٢: ١٣

(١٣) أع ١: ٨

(١٤) ١ تس ١: ٥

(١٥) ٢ تي ١: ١٣ – ١٤

التّقليد (التّسليم) الشّفهيّ والكنيسة

١. التّسليم كلّه كان في البداية شفهيّاً :

من الواضح بحسب الأناجيل أنّ تعاليم يسوع وبشارته وأعماله كلّها كانت شفهيّة:

"وكان يسوع يطوف المدن كلّها يعلّم في مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كلّ مرض..."(١٦).

وبالتّالي فكلّ ما تسلّمه التّلاميذ منه كان شفهيّاً :"فلمّا جلس تقدّم إليه التّلاميذ **ففتح فاه** وعلّمهم ..."(١٧). وكذلك كلّ ما سلّموه هم أنفسهم عندما أرسلهم للكرازة: "وقال لهم إذهبوا إلى العالم اجمع واكرزوا بالبشارة للخليقة كلّها"(١٨). وبديهيّ أن تكون البشارة شفهيّة لأنّها الطّريقة الأفضل والّتي لا يمكن الاستغناء عنها من اجل اصطياد البشر نحو الإيمان والخلاص:

"لأنّ كلّ من يدعو باسم الرّبّ يخلص . فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به. وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به. وكيف يسمعون بلا كارز. وكيف يكرزون ان لم يرسلوا. كما هو مكتوب ما أجمل أقدام المبشّرين بالسّلام المبشّرين بالخيرات"(١٩).

"لأنّ الإيمان بالسّماع والسّماع بكلام الله"(٢٠).

لكنّ التّسليم الشّفهيّ للرّسل لم يكن يحمل فقط البشارة بملكوت الله والكرازة بكلّ ما قاله يسوع وصنعه قدّام تلاميذه، بل ما هو أهمّ وأعظم أعني المواهب أو القوى الإلهيّة ذاتها الّتي تعطي الملكوت أو الحياة الأبديّة عينها. فالرّبّ يسوع وعد رسله بأن يرسل لهم معزيّاً آخر ليمكث معهم إلى الأبد(٢١)، الّذي عن طريق الشركة معه تصير لهم شركة مع الآب والابن(٢٢). هذه الشركة (أو الرؤية أو المعرفة(٢٣)) بالذّات هي ملكوت

(١٦) مت ٩:٣٥
(١٧) مت ٥:١-٢
(١٨) مر ١٦:١٥
(١٩) رو١٠:١٣-١٥
(٢٠) رو١٠:١٧
(٢١) يو١٤:١٦
(٢٢) يو ١٤ : ٢٠ - ٢١

الله[٢٤] أو حياته الأبديّة[٢٥]. هكذا كانت الشّركة بالرّوح مع الآب والابن والّتي كان يعيشها الرّسل هي الهدف الأبعد الّذي كانوا يطمحون أن يعيشه المؤمنون نتيجة لبشارتهم. ولا تزال حتّى يومنا هذا من خلال التّسليم الحيّ الغاية القصوى لكلّ بشارة أو إيمان:

"الّذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأمّا شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح"[٢٦].

وبالطبع فعيش هذه الشّركة الثّالوثيّة يحتاج قبل كلّ شيء إلى مواهب أو قوى الرّوح القدس الّتي تسلّمها الرّسل من الرّبّ يسوع – بعد قيامته[٢٧] ولا سيّما في اليوم الخمسين لهذه القيامة[٢٨] – والّتي كانوا يسلّمونها لخلفائهم بالتّسلسل الرّسوليّ بوضع اليد كي يستطيعوا إقامة خدمتهم وخاصّة الأسرار الإلهيّة:

"الّذين (أي الشّمامسة السّبعة) أقاموهم أمام الرّسل فصلّوا ووضعوا عليهم الأيادي"[٢٩].

"فصاموا حينئذ وصلّوا ووضعوا عليهما الأيادي ثم أطلقوهما"[٣٠].

"فلهذا السبب أذكّرك أن تضرم أيضاً موهبة الله الّتي فيك بوضع يديّ"[٣١].

٢. الكنيسة هي الإطار المعيّن من الله في المسيح لعيش التّسليم الشّفهيّ:

ولكن أين وكيف كان المؤمنون يحصلون على عطيّة (موهبة) الرّوح القدس كي يعيشوا هذه الشركة مع الآب ومع ابنه يسوع في الرّوح القدس من جهة، ومع الرّسل (أو خلفائهم) والمؤمنين الآخرين من جهة أخرى؟ كلّ هذا كان يحصل من خلال

(٢٣) يو ١٤ : ٧ – ١١
(٢٤) ٢بط١ : ٣ – ٤ و ١٠ –١١
(٢٥) يو ١٧ : ٣
(٢٦) يو ١ : ٣
(٢٧) يو ٢٠ : ٢٢ – ٢٣
(٢٨) أع ٢ : ٣ – ٤
(٢٩) أع ٦: ٦
(٣٠) أع ١٣ : ٣
(٣١) ٢تي ١ : ٦؛ أنظر أيضاً ١ تي ٤: ١٤ و ٢ تي ١: ١٤

عضويّتهم في جسد المسيح "الّذي هو الكنيسة"[٣٢]، بعد أن يتوبوا ويعتمدوا، أي بعد أن ينتسبوا إلى الكنيسة من خلال الأسرار المدخلة الثلاثة (المعموديّة، المسحة، كسر الخبز):

"توبوا وليعتمد كلّ واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطيّة الرّوح القدس... وكان الرّبّ كلّ يوم يضمّ إلى الكنيسة الّذين يخلصون"[٣٣].

"لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكلّ أعضاء الجسد (الواحد) إذا كانت كثيرة هي جسد واحد كذلك المسيح أيضاً. لأنّنا جميعاً بروح واحد أيضا اعتمدنا إلى جسد واحد (سرّ المعمودية) ...وجميعنا سقينا روحاً واحداً (سرّ المسحة)[٣٤].

"كأس البركة الّتي نباركها أليست هي شركة دم المسيح. الخبز الّذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح. فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد"[٣٥] (سرّ كسر الخبز).

من هنا كم هو عظيم سرّ "كنيسة الله الّتي اقتناها بدمه"[٣٦]، وكم نحتاج إلى صلوات مثل صلوات بولس الرّسول الّتي كان يذكر بها أهل أفسس، كي تستنير عيون أذهاننا فنعلم"ما هو رجاء دعوة الله وما هو غنى مجد ميراثه في القدّيسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدّة قوّته، الّذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماويّات فوق كلّ رياسة وسلطان وقوّة وسيادة وكلّ اسم يسمّى ليس في هذا الدّهر فقط بل في المستقبل أيضاً، **وأخضع كلّ شيء تحت قدميه، وإيّاه جعل رأساً فوق كلّ شيء للكنيسة الّتي هي جسده ملء الّذي يملأ الكلّ في الكلّ**"[٣٧].

ألا يذهلنا أنّ الكنيسة الّتي نحن غير المستحقّين أعضاء فيها هي ثمرة عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدّة قوّته الّذي عمله في المسيح؟ أي أن يتوّج

(٣٢) كول ١: ٢٤
(٣٣) أع ٢: ٣٨ – ٤٧
(٣٤) ١كو ١٢ : ١٢ – ١٣
(٣٥) ١كو ١٠ : ١٦–١٧
(٣٦) أع ٢٠ : ٢٨
(٣٧) أفس ١: ١٦ – ٢٣

عمله الفدائيّ العظيم (من آلام وموت وقيامة وجلوس عن يمين الآب في السماويّات وإخضاع كلّ القوّات السّماويّة تحت قدميه) في أن يصبح رأساً للكنيسة وتصبح هي جسده وملء الّذي يملأ الكلّ في الكلّ؟

فإن كانت الكنيسة فائقة الأهمّيّة إلى هذا المقدار، فكم ستكون عظمة وفاعليّة البشارة الشفهيّة الّتي كانت الحافز لإيمان أعضاء الكنائس الأولى ودخولهم في عضويّتها؟ أوليست هذه البشارة هي بالذّات "الكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السرّ الّذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية"(٣٨)، و"الّذي في أجيال أخر لم يعرّف به بنو البشر كما قد أعلن الآن لرسله القدّيسين وأنبيائه بالرّوح إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال الموعد في المسيح بالبشارة"؟(٣٩).

وكيف يمكن أن يكون "الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال الموعد في المسيح بالبشارة"، إن لم تكن هذه البشارة تحمل قوى المسيح ومواهبه غير المخلوقة، أي حضوره الإلهيّ غير المنظور؟

من يستطيع أن ينكر أنّ كلّ الكنائس الّتي تحدّثت عنها أسفار العهد الجديد دون استثناء تأسّست وبنيت عبر البشارة الّتي سلّمها الرّسل بحضورهم الشّخصيّ شفاهاً وليس كتابة؟ وأنّ خلاص أعضائها وحياتهم الأبديّة استمرّا ويستمرّان – وبعد كتابة أسفار العهد الجديد – في عيش هذه البشارة النّاقلة الحياة بالطّريقة ذاتها، أي عبر تسلّم وتسليم شخصيّين لها من قبل خلفاء الرّسل المتعاقبين عليها من جيل إلى جيل، طالما بقيت كنيسة مستقيمة الإيمان على الأرض؟:

"وأعرّفكم أيّها الإخوة بالبشارة الّتي **بشّرتكم بها** وقبلتموها **وتقومون فيها**. وبها أيضاً **تخلصون** .... فإنني **سلّمت إليكم** في الأوّل ما قبلته أنا أيضاً أن المسيح ... "(٤٠).

أيضاً إن كانت الكنيسة فائقة الأهمّيّة إلى هذا المقدار، فكم ستكون الأسرار الإلهيّة الّتي تصنعها وتحييها؟ وللتأكيد على عظمة هذه الأسرار وأهمّيّتها القصوى بالنسبة

(٣٨) رو ١٦ : ٢٥
(٣٩) افس ٣ : ٥ –٦
(٤٠) ١ كو ١٥ : ١– ٤

لخلاص ولحياة أعضاء الكنيسة، يكفي أن نشير إلى أنّ الرّبّ يسوع نفسه شدّد وبطرق مختلفة على هذه الأهمّيّة إلى حدّ القول إنّ لا خلاص ولا دخول إلى ملكوت الله، ولا حياة أبديّة بدونها:

"من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدَن"(٤١).

"أجاب يسوع الحقّ الحقّ أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والرّوح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله"(٤٢).

"... إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبديّة وأنا أقيمه في اليوم الأخير"(٤٣). إلخ...

وهنا أيضاً ألا تشهد الأسفار المكتوبة أنّ الأسرار الإلهيّة استلمها الرّسل من الرّبّ يسوع شخصيّاً وشفهيّاً، وسلّموها للكنيسة شخصيّاً وشفهيّاً ، بناء على وصاياه؟:

"لأنّني تسلّمت من الرّبّ ما سلّمتكم أيضاً أن الرّبّ يسوع في الليلة الّتي أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال (خذوا كلوا) هذا هو جسدي المكسور لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري.كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشّوا قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي..."(٤٤).

"فتقدّم يسوع وكلّمهم قائلاً دفع إليّ كلّ سلطان في السّماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس... وها أنا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدّهر"(٤٥).

"فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تغفر له. ومن أمسكتم خطاياه أمسكت"(٤٦). إلخ....

---

(٤١) مر ١٦: ١٦
(٤٢) يو ٣: ٥
(٤٣) يو ٦ : ٥٣ – ٥٤
(٤٤) ١ كو ١١ : ٢٣ – ٢٦
(٤٥) مت ٢٨ : ١٨ – ٢٠
(٤٦) يو ٢٠ : ٢٢ –٢٣

٣. العلاقة الكيانية بين التسليم الشفهي وحياة الكنيسة :

وهنا نسأل لماذا سلّم الرّبّ يسوع لرسله هذه الأسرار شخصيّاً وشفهيّاً ؟ ولماذا كان الرّسل بدورهم يسلّموها شخصيّاً وشفهيّاً ؟ ولماذا كان خلفاؤهم بالتّسلسل الرّسوليّ يسلّموها شخصيّاً وشفهيّاً؟

أليس لأنّ تسلّم وتسليم الأسرار الإلهيّة بهذه الطريقة، هو جزء أساسيّ لا غنى عنه، من طبيعة حياة الكنيسة ذاتها، والّذي تؤدّي مواظبة أعضائها عليه كجماعة، وطاعتهم لوصايا الله الّتي تسلّموها، إلى خلاصهم وإلى شركتهم معه؟:

"وكانوا يواظبون على تعليم الرّسل والشّركة وكسر الخبز والصّلوات ... وكان الرّبّ يضمّ إلى الكنيسة الّذين يخلصون"(٤٧).

وبالطّبع فالأسرار الإلهيّة، مثل كسر الخبز، لم تكن وحدها تسلّم وتعاش شفهيّاً وشخصيّاً، بل ومعها أيضاً العناصر الرّئيسة الثّلاثة الأخرى، أي تعليم الرّسل والشّركة والصّلوات الّتي كانوا يواظبون عليها، ممّا يؤكّد أنّ الحياة الكنسيّة بأوجهها المتعدّدة كانت تعاش بأكملها شخصيّاً وشفهيّاً.

فهل توقّفت أو تغيّرت طريقة الحياة هذه بعد أن لجأ الرّسل إلى الكتابة لدعم بشارتهم الشّفهيّة والمحافظة عليها؟ أم أنّها انتعشت وتقوّت وازدادت فاعليّة؟

وألا تظهر الأسفار المكتوبة ذاتها أن حياة الكنيسة هي ثمار عطايا (مواهب) "الّذي صعد فوق جميع السّموات لكي يملأ الكلّ"(٤٨)، إذ أعطى النّعمة إلى كلّ واحد من أعضائها(٤٩)، كي يصل الكلّ "إلى قياس قامة ملء المسيح": "وهو الّذي أعطى البعض أن يكونوا رسلاً والبعض مبشّرين والبعض رعاة ومعلّمين لأجل تكميل القدّيسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانيّة الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسان كامل إلى قياس ملء المسيح"(٥٠). بتعبير آخر، أليست هذه الحياة بالذّات هي شركة

(٤٧) أع ٢ : ٤٢ – ٤٧
(٤٨) أف ٤: ١٠
(٤٩) أف ٤: ٧
(٥٠) أف ٤: ١١ – ١٣

أعضاء كثيرين "ولكن جسد واحد"[٥١]، رأسه المسيح[٥٢]، يحيون في الرّوح القدس ما سبق أن سلّمه الرّسل للكنائس الأولى إلهيّاً وشفهيّاً وعاشوه مع أعضائها شخصيّاً كمثال حيّ، كي يتأصّلوا ويتأسّسوا في المحبّة "ويعرفوا محبّة المسيح الفائقة المعرفة لكي يمتلئوا إلى كلّ ملء الله"[٥٣]:

"فإنه كما في جسد واحد لنا أعضاء كثيرة ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد هكذا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح وأعضاء بعضاً لبعض كلّ واحد للآخر. ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا. أنبوّة فبالنسبة إلى الإيمان أم خدمة ففي الخدمة. أم المعلّم ففي التّعليم. أم الواعظ ففي الوعظ. المعطي بسخاء. المدبّر فباجتهاد. الرّاحم فبسرور. المحبّة فلتكن بلا رياء ...."[٥٤].

التّقليد (التسليم) الحيّ إذاً ليس فقط مجرّد مجموعة قصص أو تعاليم أو وصايا حتّى يكتفى بكتابتها وبالتّالي حتّى يمكن التّخلّي عن تسليمها شفهيّاً و عيشها شخصيّاً. وليس هو نتاج آراء أو مبادئ بشريّة تسلّمتها الكنيسة من شيوخ قدماء حتّى يكتفى بالمحافظة عليه بطريقة جامدة حرفيّة إكراماً لهم، أو أن يتولّى حكماء هذا العالم تسليمها للآخرين بوسائل دنيويّة بحتة. إنّه الحياة الأبديّة ذاتها الّتي أظهرت للرّسل، إذ رأوها وسمعوها وشاركوا بها وأخبروا عنها"[٥٥]، ولذلك تبقى مخفيّة عن أذهان وقلوب الّذين لم يحيوها ويختبروها ويذوقوا الشّركة الحقيقيّة مع الله والأخوة. هذا العيش والاختبار يمكن أن يتمّ فقط بحسب التّقليد المتسلّم عن الله، وفي إطار شركة الكنيسة الّتي أعدّها الله لتكون الكرمة الّتي تثبت فيها الأغصان[٥٦]، والهيكل المقدّس الّذي يبنى فيه الأعضاء معاً مسكناً لله في الرّوح[٥٧].

---

(٥١) ١كو ١٢ : ٢٠

(٥٢) كول ١ : ١٨

(٥٣) أف ٣: ١٨ – ١٩

(٥٤) رو ١٢ : ٩– ٢١ . انظر أيضاً الاصحاح الثاني عشر من الرسالة الأولى إلى كورنثوس والاصحاح الرابع من الرسالة إلى أفسس.

(٥٥) ١يو ١ : ٢–٣

(٥٦) يو ١٥ : ١– ١١

(٥٧) أف ٢ : ٢٠ – ٢٢

هكذا يتّضح أنّ التّقليد (التّسليم غير المكتوب) لم يكن عنصراً هامشيّاً طارئاً في حياة الكنيسة يمكن الإستغناء عنه، بل كان دائماً وسيبقى أساسيّاً في صلب تكوينها وطبيعتها. إذ لم يكن فقط الّذي أنشأ الكنائس حين قبلت البشارة، بل كان أيضاً وسيبقى، من فيه يقوم أعضاؤها وبه أيضاً يخلصون(٥٨).

وبالتّالي فالعلاقة بين التّسليم الشّفهيّ والكنيسة هي علاقة كيانيّة غير قابلة للانفصام والانقطاع، تشبه علاقة الدّم بالجسم الحيّ، فلا يحيا جسم دون دم ينقل إليه الطّاقة الضّروريّة لحياته. كما لا يعمل دم دون قلب ورئة وشرايين تنقّيه وتوزّعه على الأعضاء. على هذا النّحو لا توجد كنيسة مستقيمة الرأي والحياة دون قبول وعيش لتسليم رسوليّ حامل للإيمان المستقيم ولمواهب الحياة الإلهيّة تستمدّها منه. كذلك ليس هناك من تسليم رسوليّ صحيح إن لم توجد فعلاً الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرّسولية الّتي تسلّمه لأعضائها وتسهر على صحّته. لأنّ استقامة الرّأي والحياة الّتي يحملها التّسليم تؤدّي إلى صيرورة الكنيسة واحدة جامعة مقدّسة رسوليّة. كما أنّ الكنيسة وهي تسعى بروح الله الماكث فيها، أن تعيش وحدانيّة الإيمان وجامعيّة الشّركة وجهاد القداسة ورسوليّة التّعليم، تحافظ على استقامة ونقاوة وحيويّة التّسليم الّذي تقوم فيه.

من هنا نأمل أن ما ذكر أعلاه قد يساعد على توضيح ما عناه الأسقف القدّيس ايريناوس - وهو العارف أكثر من غيره بأهمّيّة التّقليد الرّسوليّ الّذي تسلّمه من تلاميذ الرّسل المباشرين(٥٩) – حين قال: "حيث تكون الكنيسة هناك يكون روح الله، وحيث روح الله فهناك الكنيسة وكلّ عمل النعمة. لأنّ الّذين لا يشتركون في الرّوح القدس لا يغتذون الحياة من ثدي أمّهم ولا يرتوون من النّبع الفائض المنبثق من جسد المسيح... الهراطقة بما أنّهم ليسوا في التّقليد إذاً ليسوا في الكنيسة، وعلى العكس لأنّهم غير موجودين في الكنيسة ليسوا في التّقليد، ولا يعيشون في التّيار الحيّ لروح الله"(٦٠).

---

(٥٨) ١ كو ١٥ : ١ – ٢

(٥٩) عاش في القرن الثاني وكان تلميذاً للقديس بوليكاربوس تلميذ الرّسول يوحنا الحبيب .

(٦٠) Iren. , Adv. , Haer. , III, 24, 1.

التّسليم المكتوب والكنيسة

١. تشكّل التّسليم المكتوب وأهمّيّته:

لم ينـزل الرّبّ يسوع من السماء ليُنـزِّل على الناس كتاباً مقدّساً، كما يتوهّم البعض، بل لكي يبني كنيسة: "وعلى هذه الصّخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"(٦١). وبالتّالي فلم توجد الكنيسة من أجل الكتاب المقدّس، بل الكتاب المقدّس من أجل الكنيسة. لأنّ تلاميذ الرّبّ الّذين أُرسلوا بعد حلول الرّوح القدس عليهم(٦٢) ليؤسّسوا كنائس، شاهدين للربّ فماً لفم "في أورشليم وفي كلّ اليهوديّة والسّامرة وإلى أقصى الأرض"(٦٣)، هم أنفسهم بقوّة الرّوح ذاته الّذي كان قد حلّ عليهم، كتب بعضهم رسائل أو أناجيل إلخ... إلى بعض هذه الكنائس، بعد سنوات متفاوتة من تأسيسها، في إطار البشارة عينها الّتي كانوا يكرزون بها. هكذا لم يكن أبداً تمييز بين تسليماتهم الشّفهيّة وبين كتاباتهم طالما أنّ روح الله كان المتكلّم فيهم(٦٤) في كلتا الحالّتين، وطالما أنّ هدفهم حينها لم يكن أن يكتبوا أسفاراً من الكتاب المقدّس بل أن يبنوا الكنيسة. لأنّ هذه الكتابات الّتي كانوا قد أرسلوها للكنائس المعنيّة، أو لأحد أعضائها، كانت إمّا جواباً على أسئلتها أو على احتياجاتها المنوّعة، (مثلاً الرعائيّة أو الإيمانيّة أو الشخصيّة إلخ...)، وإمّا تلخيصاً للبشارة الّتي كانوا يكرزون شخصياً بها، أو لبشارة الرّسول الّذي كانوا يرافقونه، أو لأعماله، بناء على طلب أو حاجات الكنائس في ذلك الزّمان. كمثال على الكتابة بسبب حاجة الكنائس ما أمر به الرّبّ يسوع شخصياً الرسول يوحنّا أن يكتب ما يراه من إعلانات أو رؤى في كتاب ويرسله إلى السّبع كنائس الّتي في آسيا(٦٥).

وبالطّبع كان لتسجيل بعض ما نطق به الكلمة المتجسّد وما عمله أثناء حياته على الأرض، وكذلك لتدوين ما تيسّر من أقوال رسله وأعمالهم ورؤاهم أهمّيّة بالغة فاقت

---

(٦١) مت ١٦: ١٨

(٦٢) أع ١: ٨ و ٢: ٣ – ٤

(٦٣) أع ١: ٧

(٦٤) مت ١٠: ٢٠

(٦٥) رؤ ١: ١١

كلّ تصوّر لأنّه كان له الدّور الأعظم في حفظ وديعة "الإيمان المسلَّم مرة للقدّيسين" من الاندثار والضياع والتّحوير، وبالتالي لأن يصير الإعلان الإلهيّ، الّذي تمّ من خلال الرّبّ يسوع، في متناول البشريّة في سائر الأصقاع وعلى مرّ العصور، وكأنّه شمس دائمة تضيء في جميع الأجيال. هكذا أصبحت هذه الكتابات مثل الأناجيل، الّتي سجّلت بحسب التّدبير الإلهيّ في وقتها المناسب، وثائق أصلية تحمل بشارة أبديّة كتبها وسلّمها شهود عيان صادقون أتيح لعيونهم أن تبصر وكذلك لآذانهم أن تسمع مباشرةً ما اشتهاه أنبياء وأبرار كثيرون أن يروا وأن يسمعوا:

"الّذي كان من البدء الّذي سمعناه الّذي رأيناه بعيوننا الّذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة... نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا"(٦٦).

وقد ثبّتت ووضّحت شهادةَ هؤلاء الشهود الأقوالُ الّتي نطقوا بها والأعمال الّتي قاموا بها باسم الرّبّ بعد صعوده، والّتي سُجّل بعضها في أعمال الرّسل، إضافة إلى ما رآه وسمعه منه مباشرة البعضُ منهم مثل الرّسول يوحنّا الحبيب والّذي سجّله في سفر رؤيا يوحنّا اللاّهوتيّ. وبالطبع فما كتبه الرّسل من رسائل موجّهة إلى الكنائس هو أيضاً بالغ الأهمّيّة. لأنّ أجوبتهم على الأسئلة الّتي طرحها أعضاء الكنائس حينها، ومعالجتهم للصّعوبات وللمواقف الّتي اعترضت سيرة المؤمنين الجديدة في المسيح، فضلاً عن توضيحهم لقضايا روحيّة وإيمانيّة بالغة الدقّة والسّمو، سوف يبقى إلى الأبد الجواب الأفضل على المشاكل الّتي واجهت جميع الكنائس في سائر الأزمنة، والتّفسير الأمثل لبشارة الخلاص والملكوت، والغوص الأعمق في الحقائق المتعلّقة بالإلهيّات. لأنّه من مثل الرّسل – الّذين عرفوا الكلمة المتجسّد شخصيّاً، وأعطيوا أن يُلبَسوا قوّة من الأعالي(٦٧) – استطاع أن يعرف أمور الله بروح الله(٦٨) كما عرفوها هم؟ ومن مثلهم استطاع أن يتكلّم ويكتب "لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانيّة بل بما يعلّمه الرّوح القدس قارنين الرّوحيّات بالرّوحيّات(٦٩)؟ "لأنّه – كما يقول الرسول بولس – من عرف فكر

(٦٦) ١ يو ١: ١ – ٣
(٦٧) لو ٢٤: ٤٩
(٦٨) ١ كور ٢: ١١ – ١٢
(٦٩) ١ كور ٢: ١٣

الرّبّ فيعلّمه. وأمّا نحن فلنا فكر المسيح"(٧٠).

من أجل هذا كلّه حرص الرّسل على إظهار أهمّيّة هذه الكتابات جميعها حاضّين على قراءتها ونشر مضمونها بين الإخوة والمحافظة عليها:

"ومتى قرئت عندكم هذه الرّسالة فاجعلوها تقرأ أيضاً في كنيسة اللاودكيّين والّتي من لاودكية تقرأونها أنتم أيضاً"(٧١).

"أناشدكم بالرّبّ أن تقرأ هذه الرّسالة على جميع الإخوة القدّيسين"(٧٢).

"لأنّي أشهد لكلّ من يسمع أقوال نبوة هذا الكتاب إن كان أحد يزيد على هذا يزيد الله عليه الضّربات المكتوبة في هذا الكتاب. وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة..."(٧٣).

٢. محافظة الكنيسة على التّسليم المكتوب، ودخوله في صلب حياتها:

هكذا استجابة لطلب الرّسل، وكذلك لمعرفة الكنائس منذ البداية قيمة وقدسيّة ما كتبه أولئك الشّهود الممتلئون من الرّوح القدس، فقد صارت كل كنيسة تسعى لنسخ لا الكتابات الّتي وصلت إليها فحسب، بل والّتي وصلت إلى الكنائس الأخرى كي تقرأها في اجتماعاتها وعبادتها محافظة عليها ككنز جزيل الثّمن. هكذا ابتدأت الكنائس منذ القرن الأوّل بتجميع الكتب المقدّسة. لكن عندما صار بعض الهراطقة وغيرهم يصدرون كتباً مدسوسة تحمل أسماء رسل وتلاميذ تصدّت الكنيسة لهم استناداً إلى تسليمها الرّسوليّ المحفوظ عندها ونعمة التّمييز الموهوبَين لها من الله، فلم تتهاون في قطع الكتب المنحولة جملة واحدة(٧٤).

---

(٧٠) ١ كور ٢: ١٦

(٧١) كول ٤: ١٦

(٧٢) ١ تس ٥: ٢٧

(٧٣) رؤ ٢٢: ١٨ – ١٩

(٧٤) في هذا المجال يقول القديس سرابيون أسقف أنطاكية، وهو يفنّد الكتاب المدسوس المنسوب لبطرس الرسول تحت اسم إنجيل بطرس: "لأنّنا أيّها الإخوة نقبل كلاً من بطرس وسائر الرّسل كرسل المسيح ولكنّنا نرفض بشدّة الكتابات المنسوبة إليهم زوراً عالمين أنّ مثل هذه لم تسلّم إلينا" (تاريخ الكنيسة ليوسابيوس، ك ٦، فصل ١٢: ٣).

أمّا بخصوص تحديد الكتب المقدّسة (للعهد الجديد) فلم تتّخذ الكنيسة قراراتها النهائيّة بشأنها عبر مجامع محليّة إلاّ في نهاية القرن الرّابع[٧٥]، بعد أن صارت قانونيّتها مثبتة عمليّاً وسارية المفعول في الكنائس المحليّة.

هذا كلّه يظهر أنّ ما سمّي فيما بعد بالعهد الجديد[٧٦] – والّذي سينضمّ إلى أسفار العهد القديم كي يشكّلا معاً ما سيعرف بالكتاب المقدّس – لم يكن أبداً منفصلاً عن حياة الكنيسة، ولا متعالياً عليها. فقد كتبت أسفاره، كما رأينا، تلبية لاحتياجات الكنيسة، وبهدف تعزيز وتثبيت البشارة الشّفهيّة الّتي كان قد أطلقها الرّبّ يسوع من أجل بناء الكنيسة. وبالمقابل فالكنيسة هي الّتي فرزت الأسفار المنحولة، وثبّتت الأسفار القانونيّة مدخلة إيّاها في تيّار تعليمها وحياتها أي في صلب التّقليد المعاش الّذي تسلّمته منذ إنشائها. هكذا منذ الآنّ فصاعداً ستتخلّل نصوص الكتاب المقدّس سائر مجالات تعابير الكنيسة عن إيمانها وعبادتها مثل بشارتها وعظاتها وتعليمها وكتابات آبائها ومناظراتهم وتحديدات مجامعها العقائديّة وطقوس أسرارها الإلهيّة، وصلوات ليتورجيّتها وتراتيلها إلخ... وحتّى أيقوناتها وقوانينها الّتي تنظّم حياتها إلخ...

بالنتيجة يمكننا القول أنّ ما كتبه الرّسل والتّلاميذ في العهد الجديد – كما الأنّبياء في العهد القديم – كان موحى به من الله[٧٧]، وأنّه احتلّ ولا يزال المكانة الأولى والرّكن الأساسيّ في تعليم الكنيسة وحياتها. لأنّه هو الّذي حفظ بإلهام الله إعلاناته الملائمة لخلاص البشر، وسجّل كتابةً تدبيره وقصده الأزليين من أجل حياتهم الأبديّة، موضّحاً ومثبّتاً الحقيقة الّتي تسلّمتها الكنيسة منذ البدء فعلّمتها وعاشتها. إلاّ أنّ كنيسة الله الحيّ، كما أكّد رسول الأمم العظيم، هي عمود هذه الحقيقة وقاعدتها[٧٨]. لأنّها هي المؤهّلة – بسبب سكنى الرّوح فيها، واستنادها إلى تقليدها الشفهيّ المتسلّم عن الرّسل أنفسهم، والموحى به أيضاً من الله – لأنّ تشهد باستمرار من خلال قدّيسيها لهذه الحقيقة، وأن

(٧٥) من هذه المجامع مجمع لاودكية (٣٦٣ م) وهيبو (٣٩٣) وقرطاجنة (٣٩٧) إضافة إلى الرّسالة التّاسعة والثّلاثين لأثناسيوس الكبير (٣٦٧).

(٧٦) أوّل من أطلق على هذه الكتابات اسم العهد الجديد (καινή Διαθήκη) هو العلاّمة ترتليانوس.

(٧٧) ٢ تيم ٣: ١٦

(٧٨) ١ تيم ٣: ١٥

تفسّر الكتب المقدّسة بانسجام معها. وفي الواقع أنّه منذ بدأت الكنيسة تتسلّم كتابات العهد الجديد عن الرّسل، لم تعد تعتمد فقط على تسليماتهم الشّفهيّة وحدها، كما أنّها سوف لن تعتمد فيما بعد على تسليماتهم المكتوبة وحدها، بل على الاثنين كليهما، واللذين سيصيران معاً تقليدها الواحد المتسلّم عن الله.

وحدانيّة تسليم الرّسل:

١. التّقليد الواحد (بنوعيه الشفهيّ والمكتوب) أي الوديعة:

حينما أطلق الرّبّ يسوع رسله للبشارة في العالم: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس"، كانت وصيّته الأخيرة لهم: "وعلّموهم أن **يحفظوا جميع ما أوصيتكم به**"، الّتي أرفقها بوعده في دعمه الدّائم لهم شخصيّاً في هذه المحافظة إلى انقضاء الدهر: "وها أنا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدهر"(٧٩). ممّا يعني بجلاء أنّ جميع ما كانوا رأوه وسمعوه عندما كانوا معه وما علّمهم وسلّمهم إيّاه هو الّذي أوصاهم أن يحافظوا عليه، لأنّه مهمّ من أجل إيمان أعضاء الكنيسة وبالتالي من أجل خلاصهم وحياتهم الأبديّة.

هذا بالذّات، أو جميع ما تسلّمه الرّسل من الرّبّ وسلّموه للكنائس بالرّوح القدس، كلاماً كان أم حياة في أسرار إلهيّة، هو ما سيسمّيه بولس الرّسول: "وديعة"، وسيوصي بدوره في المحافظة عليها: "يا تيموثاوس **احفظ الوديعة** معرضاً عن الكلام الباطل الدّنس ومخالفات العلم الكاذب الاسم"(٨٠).

"تمسّك بصورة **الكلام** الصّحيح الّذي **سمعته** منّي في الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع. **احفظ الوديعة** الصالحة بالرّوح القدس السّاكن فينا"(٨١).

كما سيوصي بالسّهر على تأمين استمراريّة تسليمها وسلامة إيداعها:

---

(٧٩) مت ٢٨: ٢٠

(٨٠) ١ تيم ٦: ٢٠

(٨١) ٢ تيم ١: ١٣ – ١٤

"وما **سمعته** منّي بشهود كثيرين **أودعه** أناساً أمناء يكونون أكفّاء أن يعلّموا آخرين أيضاً"(٨٢).

واضح هنا من كلام الكلمة المتجسّد ورسوله بولس أنّ الوديعة كانت كلّها في البداية شفهيّة وشخصيّة، استلاماً وتسليماً. وبديهيّ أنّها لم تبق كذلك بعد أن ابتدأ الرّسل في أن يكتبوا إلى الكنائس. ولكن هل صارت الوديعة مكتوبة كلّها – كما يحاجج البعض – بعدما صار عند الكنيسة أسفار مقدّسة؟ وهل الاحتفاظ بالتّسليمات المكتوبة وحدها والتخلّي عن التّسليمات الشفهية هو فعلاً التطبيق الأمين لوصية السيد: "وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به"؟ بتعبير آخر:

٢. هل تضمّنت كتابات التّلاميذ (أسفار العهد الجديد) كلّ الوديعة؟

على هذا السؤال سوف نحاول أن نجيب استناداً إلى هذه الأسفار وحدها:

أوّلاً: لم تتضمّن تسليمات الرّسل المكتوبة: "آيات أخر كثيرة صنعها يسوع قدّام تلاميذه"(٨٣)، ولا "أشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة فواحدة فلست أظنّ (بحسب تعبير يوحنّا الرّسول) أنّ العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة"(٨٤)، ولا أمثال أخر كثيرة كلّم بها الجموع، ولا تفسيراتها الكثيرة الّتي قالها لتلاميذه على انفراد:

"وبأمثال كثيرة مثل هذه كان يكلّمهم حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا. وبدون مثل لم يكن يكلّمهم. وأمّا على انفراد فكان يفسّر لتلاميذه كلّ شيء"(٨٥).

كذلك لم تتضمّن هذه التّسليمات المكتوبة تعاليم أخرى كثيرة قالها الرّبّ يسوع في مجامع اليهود وفي أمكنة مختلفة، وتفاسير أخرى كثيرة للأمور المختصّة به في جميع الكتب، وكلمات أخرى لا حصر لها قالها في مناسبات كثيرة عن الأمور المختصّة بملكوت الله:

---

(٨٢) ٢ تيم ٢: ٢
(٨٣) يو ٢٠: ٣٠
(٨٤) يو ٢١: ٢٥
(٨٥) مر ٤: ٣٣ – ٣٤

"وكان يسوع يطوف كلّ الجليل يعلّم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كلّ مرض وضعف في الشعب"(٨٦). "فدخل إحدى السّفينتين الّتي كانت لسمعان وسأله أن يبعد قليلاً عن البرّ. ثمّ جلس وصار يعلّم الجموع من السفينة"(٨٧).

"ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنّبياء يفسّر لهما الأمور المختصّة به في جميع الكتب"(٨٨). "وقال لهم هذا هو الكلام الّذي كلّمتكم به وأنا بعد معكم أنّه لا بدّ أن يتمّ جميع ما هو مكتوب عنّي في ناموس موسى والأنّبياء والمزامير. حينئذٍ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب"(٨٩).

"الّذين أراهم أيضاً نفسه حيّاً ببراهين كثيرة بعدما تألّم وهو يظهر لهم أربعين يوماً ويتكلّم عن الأمور المختصّة بملكوت الله"(٩٠).

"متذكّرين كلمات الرّبّ يسوع أنّه قال مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ"(٩١).

ثانياً: لم تسجّل الأسفار المقدّسة سوى النزر اليسير من أقوال تلاميذ الرّبّ وأعمالهم الحاملة بالرّوح القدس لإعلان "الكلمة" وقوّته، الّذين "إلى كلّ الأرض خرج صوتهم وإلى أقاصي المسكونة أقوالهم"(٩٢). فكاتب أعمال الرّسل مثلاً(٩٣)، اكتفى في البداية بالإشارة العابرة إلى أعمال الرّسل عامّة، وإلى لمحة من أقوال وأعمال البارزين بينهم، مثل بطرس ويوحنّا ويعقوب أخي الرّبّ، ثمّ انتقل بخاصّة إلى متابعة بعض أعمال بولس وكلماته، والّتي تتوقّف عند احتجازه الأوّل في روما.

فهل القليل جدّاً الّذي ذكر في "أعمال الرّسل" هو كلّ ما قاله وعمله بطرس ويوحنّا ويعقوب وبولس خلال حياتهم على الأرض؟ وأين ذهبت باقي أعمالهم وأقوالهم

---

(٨٦) مت ٤: ٢٣

(٨٧) لو ٥: ٣

(٨٨) لو ٢٤: ٢٧

(٨٩) لو ٢٤: ٤٤ – ٤٥

(٩٠) أع ١: ٣

(٩١) أع ٢٠: ٣٥؛ كلمات الرّبّ يسوع هذه الّتي ذكرها الرّسول بولس هي نموذج عن أقوال الرّبّ الكثيرة الّتي كان يتناقلها تلاميذه و لم ترد في الأناجيل.

(٩٢) مز ١٩: ٤؛ رو ١٠: ١٨

(٩٣) السفر الوحيد الّذي كتب عمّا جرى بعد صعود السيّد وعن دور الرّسل في تأسيس الكنيسة.

الشّفهيّة ومعها سائر أعمال وأقوال باقي الرّسل الإثني عشر والسّبعين رسولاً وغيرهم من التّلاميذ الّذين بشّروا في أقطار كثيرة داخل وخارج الأمبرطوريّة الرّومانيّة.

أمّا من جهّة الكتابة فمن بين كلّ هؤلاء لم يكتب إنجيلاً (ملخّصاً عن البشارة) سوى اثنين من الإثني عشر (متى ويوحنّا) واثنين من التّلاميذ (مرقص ولوقا). فيما يتعلّق بالرّسائل لم يسهب في كتابتها سوى بولس، لأنّ بطرس ويوحنّا ويعقوب ويهوذا كانت رسائلهم قليلة العدد والصّفحات.

فلماذا قلّل هؤلاء الأخيرون (ثلاثة منهم معتبرون أعمدة) فلم يكتبوا سوى بضعة رسائل قصيرة؟

على هذا السّؤال يكرّر الرّسول يوحنّا الجواب نفسه في رسالّتيه الثّانية والثّالثة اللّتين لم تتجاوز كلّ منهما الصّفحة الواحدة معرباً في كلّ منهما عن تفضيله الواضح للكلام فماً لفم لأنّه يجعل فرح الشّركة كاملاً: "إذ كان لي كثير لأكتب إليكم لم أرد أن يكون بورق وحبر لأنّي أرجو أن آتي إليكم وأتكلّم فماً لفم لكي يكون فرحنا كاملاً"(٩٤).

ولماذا لم يكتب بعامّة الّذين لم يكتبوا، وهم الأغلبيّة السّاحقة من الرّسل والتّلاميذ؟ هل كان ذلك عجزاً منهم؟ أم لأنّ هؤلاء كانوا يعرفون جيّداً أنّ القاعدة العامّة للكرازة والطريق الأفضل والأجدى لاصطياد النّفوس هو البشارة فماً لفم، كونها الحضور الحيّ الحامل للرّوح والحياة الإلهيّة والّذي ينفذ مباشرة للقلوب؟ ألم يختر الرّبّ يسوع، هو نفسه، الكرازة الحيّة فماً لفم عندما بشّر وعلّم، وألم يفعل هذا جميع من أرسلهم (بمن فيهم الإثنا عشر والسبعون)، إن كان إلى خراف إسرائيل الضّالة قبل قيامته، أم "في أورشليم وفي كلّ اليهوديّة وإلى أقصى الأرض" بعد قيامته؟ وألم يكن افتتاح بطرس لهذه الكرازة الأخيرة، بعد إرسال الرّوح القدس، بعظة شفهيّة قصيرة تكلّم فيها الرّوح نفسه، هو الّذي أدّى إلى أن تنخس قلوب ثلاثة آلاف نفس فكانوا باكورة من نقلوا الإيمان وانضمّوا إلى الكنيسة؟

---

(٩٤) ٢ يو ١٢ و ٣ يو ١٣

ثالثاً: لم يكن ممكناً أن تسجّل كتابةً مواهب الرّوح القدس الّتي سلّمها الرّسل لمسؤولي الكنائس بوضع الأيدي ولا حضورهم الشّخصيّ ذاته، ولا سائر ترتيباتهم العمليّة أثناء هذا الحضور، مثل تنظيم مسؤولية الرعاية في الكنائس لمن يخلفهم فيها، وكيفيّة إقامة الأسرار الإلهيّة مثل المعموديّة والمسحة وكسر الخبز والزّواج والزّيت إلخ... وهل يعمّدون الأطفال وكيف يعمّدونهم؟ وماذا يفعلون عندما يرقد أحد المؤمنين، هل يصلّون عليه وماذا يصلّون؟ إلخ... وبالإجمال كيف يعيش أعضاء الكنيسة إيمانهم وحياتهم الأسراريّة وصلواتهم العامّة والخاصّة وثباتهم في المسيح وشهادتهم وجهاداتهم ومواقفهم تجاه الاضطّهادات والهرطقات والتّجارب المنوّعة إلخ...

عن أمثال هذه الأمور وشبيهاتها يقول القدّيس بولس لأهل كورنثوس: "وأمّا الأمور الباقية فعندما أجيء أرتّبها"[٩٥]. أو يطلب من تلاميذه الموكّلين على الكنائس (الأساقفة) لكي يقوموا بترتيبها في كنائسهم: "لأجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور النّاقصة، وتقيم في كلّ مدينة شيوخاً (قسوساً)"[٩٦].

وهنا قد يكون من المناسب لزيادة التّوضيح أن ننقل أمثلة أعطاها القدّيس باسيليوس الكبير عن قضايا مرتبطة بعبادة الكنيسة الأولى تسلّمتها عن الرّسل، وكانت حينها تنتقل سرّيّاً دون أن يسمح بإذاعتها لغير المؤمنين بعكس التّعاليم الّتي كان يمكن أن تعلن: "فعلى سبيل المثال – ولكي أذكر الأوّل والأكثر عموميّة من الكلّ هو إشارة الصّليب، فمن الّذي علّمنا كتابة أن نرسمه نحن الّذين آمنّا باسم ربّنا يسوع المسيح؟ وما هي الكتابة الّتي علّمتنا أن نتوجّه نحو الشّرق أثناء الصّلاة؟ ومَن من القدّيسين ترك لنا كتابة كلمات استدعاء الرّوح القدس على خبز الشّكر وكأس البركة؟ ... أيضاً نحن نبارك ماء المعموديّة وزيت المسحة وحتّى المُعمَّد نفسه، فمن أيّة كتابات تعلّمنا كلّ هذه؟ أليس من التّقليد (التّسليم) الصّامت والسّرّيّ؟ كذلك أيضاً أيّ كلام مكتوب يُعلّم المسح بالزّيت المقدّس؟ ومن أيّ كتاب استقينا تغطيس الإنّسان في الماء ثلاث مرّات؟ ومعه سائر الأمور الأخرى المتعلّقة بالمعموديّة مثل جحد الشّيطان وملائكته؟ ألم تأت كلّ هذه من التّعليم

(٩٥) ١ كور ١١: ٣٤

(٩٦) ١ تي ١: ٥

المكتوم وغير المُعلَن الّذي حفظه آباؤنا بسكون إذ تعلّموا بحقّ بأنّ وقار الأسرار يحافظ عليه بالصّمت؟[٩٧]

٣. تشديد الرّسل على الكنائس أن يثبتوا ويتمسّكوا بنوعي التّسليم الواحد كليهما:

إذن، أين ذهبت الآيات الأخرى الكثيرة والأشياء الأخرى الكثيرة الّتي صنعها يسوع؟ وأين ضاعت تفاسيره "لكتب موسى والأنّبياء والمزامير" ومعها كلّ تعاليمه وأمثاله وأقواله الأخرى غير القابلة للحصر والّتي هي أيضاً "لا يسعها العالم نفسه إن كتبت واحدة فواحدة"؟

وهل من المعقول أن تختفي كلّ كلمات التّلاميذ وأعمالهم وترتيباتهم أثناء بشارتهم لأقطار المسكونة فلا تتشرّبها الكنائس خلال تأسيسهم لها ولا تحافظ عليها؟ وأليس من خلال هذه الكلمات والأعمال والتّرتيبات ومعونة الرّوح القدس الماكث فيهم[٩٨] الممجّد ليسوع[٩٩] كان الرّسل يكرزون "ويعملون ويعلّمون" بجميع آياته وعظائمه وبشارته وأقواله ووصاياه؟ وكيف يمكن أن تتمسّك الكنائس بالأسفار المكتوبة وحدها، فلا تحافظ على الوديعة بأكملها أي التّقليد الواحد بنوعيه الشّفهيّ والمكتوب، ورسل الرّبّ يحضّونهم بتواتر وإلحاح على الثّبات والتمسّك بتسليماتهم سواء كان بالكلام أم بالكتابة؟:

"فاثبتوا إذن أيّها الإخوة وتمسّكوا **بالتّسليمات** (Paradosis) الّتي تعلّمتموها سواء كان بالكلام أم برسالتنا"[١٠٠].

"فأمدحكم أيّها الإخوة على أنّكم تذكرونني في كلّ شيء وتحفظون **التّسليمات** (Παραδόσεις) كما سلّمتها إليكم"[١٠١] (بولس الرّسول).

---

(٩٧) M. Βασιλείου, Περί , Αγίου Πνεύματος, P.G. 32, Κεφ. ΚΖ' 66. Σ 188. القدّيس باسيليوس الكبير، في الرّوح القدس، مين ٣٢، ف ٢٧، ٦٦، ص ١٨٨.

(٩٨) يو ١٤: ١٧

(٩٩) يو ١٦: ١٤

(١٠٠) ٢ تس ٢: ١٥؛ هنا تترجم نسخة دار الكتاب المقدّس (البروتستانتيّة) كلمة Παραδόσεῖς اليونانيّة بكلمة تعاليم وليس بمعناها الأصليّ وهو التّسليمات أو التّقاليد الّتي تسلّمتها الكنيسة عن الرّبّ يسوع بواسطة الرّسل.

"أمّا أنتم **فما سمعتموه من البدء** فليثبت فيكم. إن ثبت فيكم **ما سمعتموه** من البدء فأنتم أيضاً تثبتون في الابن والآب"(١٠٢)(يوحنّا الرّسول).

"لتذكروا الأقوال الّتي قالها سابقاً الأنبياء القدّيسون **ووصيّتنا نحن الرّسل وصيّة الرّبّ والمخلّص**"(١٠٣) (بطرس الرّسول).

".. أن تجتهدوا لأجل الإيمان **المسلّم** مرّة للقدّيسين ... فاذكروا **الأقوال الّتي قالها سابقاً رسل ربّنا يسوع المسيح**"(١٠٤) (يهوذا الرّسول).

وبالطبع ولأنّ الثّبات والتّمسّك بالبشارة الواحدة (الشّفهيّة والمكتوبة) يتمّان من خلال الثّبات في المسيح والحياة في كنيسته بحسب هذه البشارة الواحدة، كان لا بدّ من التّشديد على أعضاء الكنيسة أن يعيشوا وأن يجاهدوا معاً بنفس واحدة لإيمان البشارة: "فقط عيشوا كما يحقّ لإنجيل (بشارة) المسيح حتّى إذا جئت ورأيتكم أو كنت غائباً أسمع أموركم أنّكم تثبتون في روح واحد مجاهدين معاً بنفس واحدة لإيمان الإنجيل (البشارة)"(١٠٥).

من خلال هذا التّشديد على الحياة بحسب البشارة، يمكننا أن نفهم طلب الرّسول بولس من أعضاء الكنائس الّتي بشّرها أن يحافظوا لا على "ما تعلّموه وتسلّموه" منه فحسب، بل وعلى "ما سمعوه ورأوه فيه"، وذلك من خلال مثاله الشّخصيّ المتمثّل بالمسيح المجسّد الأفضل للحياة بحسب البشارة، لأنّ عنده "الرّوح الّذي من الله... وفكر المسيح"(١٠٦):

"وما تعلّمتموه وتسلّمتموه وسمعتموه ورأيتموه فيّ فهذا افعلوا وإله السّلام يكون معكم"(١٠٧).

"كونوا متمثّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح"(١٠٨).

---

(١٠٢) ١ يو ٢: ٢٤
(١٠٣) ٢ بط ٣: ٢
(١٠٤) يه: ٣ و ١٧
(١٠٥) فيل ١: ٢٧
(١٠٦) ١ كور ٢: ١٢ – ١٦
(١٠٧) فيل ٤: ٩
(١٠٨) ١ كور ١١: ١

"كونوا متمثّلين بي معاً أيّها الإخوة، ولاحظوا الّذين يسيرون هكذا كما نحن عندكم قدوة"(١٠٩).

حضّ الرّسل الكنائس على الثّبات والتمسّك بتسليماتهم يصل إلى حدّ الطّلب أن يُتجنّب كلّ أخ لا يسلك بحسبها، وأن لا يُقبل في البيت أيّ أحد يتجرّأ على أن يغيّر فيها ولا أن يقال له سلام، وحتّى أن يكون أناثيما (مفروزاً):

"ثمّ نوصيكم أيّها الإخوة باسم ربّنا يسوع المسيح أن تتجنّبوا كلّ أخ يسلك بلا ترتيب وليس حسب **التّسليم** (Paradosis) الّذي أخذه منّا"(١١٠).

"كلّ من تعدّى و لم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً. **إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التّعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلام**. لأنّ من يسلّم عليه يشترك في أعماله الشّرّيرة"(١١١).

"ولكن إن بشّرناكم نحن أو ملاك من السّماء **بغير ما بشّرناكم فليكن أناثيما**. كما سبقنا فقلنا أقول الأنّ أيضاً إن كان أحد يبشّركم **بغير ما قبلتم فليكن أناثيما** (مفروزاً)"(١١٢).

٤. وحدانيّة وتساوي أهمّيّة نوعي التّقليد الواحد وتكاملهما:

كلّ ما سبق، خصوصاً إلحاح الرّسل على التمسّك بتسليماتهم الشّفهيّة كما المكتوبة، يؤكّد على حقيقة أنّه لم يكن هناك في الكنيسة مصدران للتّعليم والحياة، كما يظنّ البعض، أي الكتاب المقدّس والتّقليد، بل كان دائماً مصدر واحد هو الوديعة الرّسوليّة الّتي تسلّمتها الكنيسة من الرّبّ يسوع، أي التّقليد (التّسليم) الواحد بنوعيه الشّفهيّ والمكتوب ودون انفصال بينهما.

وفي الحقيقة إنّ التكلّم على الكتاب المقدّس والتّقليد وكأنّهما اثنان لا واحد لم يكن معروفاً قبل الإصلاح البروتستانتيّ في الغرب في القرن السادس عشر والّذي طرح

(١٠٩) فيل ٣: ١٧
(١١٠) ٢ تس ٣: ٦
(١١١) ٢ يو ٩ – ١٠
(١١٢) غل ١: ٨ – ٩

شعار الكتاب وحده (Sola Scriptura) احتجاجاً على ما بدا له في تقليد الكنيسة الغربيّة تغييراً ومخالفة للكتاب المقدّس، فقابله لاهوتيّو كنيسة روما بالشّعار المقابل: الكتاب المقدّس والتّقليد، محاولين أن يقيموا التّقليد مقابل الكتاب المقدّس وكأنّه مصدر آخر للحقيقة المسيحيّة منفصل عنه.

ولتأكيد واقع وحدانيّة الاثنين يحسن الرّجوع إلى ما سمّيناه في بداية البحث: "ماهيّة التّقليد المتسلّم عن الله" لنرى أنّ هذه الماهيّة تنطبق على تسليمات الرّسل الشّفهيّة والمكتوبة كليهما. فالتّقليد الشّفهيّ كما المكتوب هو ذاته تسليم إعلان الله بابنه المتجسّد يسوع، كما أنّهما كلاهما البشارة عينها بسرّ الخلاص وملكوت الله اللّذين أعطاهما بموته وقيامته. الماهيّة هي واحدة وإن اختلفت طريقتا التّسليم. المصدر واحد هو الرّبّ يسوع، والّذين سلّموا كارزين شفاهاً أو كتابةً هم أنفسهم الرّسل وتلاميذ الرّبّ الممتلئون بالرّوح القدس في كلتا الحالّتين.

لذلك لا عجب، ولأنّ التّسليمين هما واحد أن تكون أوصافهما وتسمياتهما واحدة. فمثلاً كلمة إنجيل (εὐαγγέλιον) ومعناها بشارة، والّتي هي عنوان أو تسمية كلّ من الأنّاجيل الأربعة المكتوبة، هي ذاتها مع مشتقّاتها كانت عنوان التّسليم الشّفهيّ والصّفة المميّزة له:

"بدء إنجيل (بشارة) يسوع المسيح ابن الله"(١١٣).

"وبعدما أسلم يوحنّا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة (إنجيل) ملكوت الله"(١١٤).

"وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالأنّجيل (بالبشارة) للخليقة كلّها"(١١٥).

وحتّى كلمة تسليم (Παράδοσις) نفسها مع مشتقاتها تطلق على تسليمي الرّسل المكتوب وغير المكتوب وإن تكن تطلق أكثر على التّسليم غير المكتوب:

"فاثبتوا إذاً أيّها الإخوة وتمسّكوا بالتّسليمات (Παραδόσεις) الّتي تعلّمتموها سواء كان بالكلام أم برسالتنا"(١١٦).

---

(١١٣) مر ١: ١

(١١٤) مر ١: ١٤

(١١٥) مر ١٦: ١٥؛ أنظر مت ٤: ٢٣؛ غل ١: ١١ و ١ تس ٢: ٢ و ٨ إلخ...)

(١١٦) ٢ تس ٢: ١٥

"ثمّ نوصيكم أيّها الإخوة باسم ربّنا يسوع المسيح أن تتجنّبوا كلّ أخ يسلك بلا ترتيب وليس حسب التّسليم (Παράδοσις) الّذي تسلّمه منّا"(١١٧).

"فأمدحكم أيّها الإخوة على أنّكم تذكرونني في كلّ شيء وتحفظون التّسليمات (Παραδόσεις)، كما سلّمتها (Παρέδωκα) إليكم"(١١٨).

أمّا المثلان الأكثر دلالة فهما الوصفان اللّذان تستعملهما الكنائس الرّافضة للتّقليد لكي تصف بهما حصراً ما هو مكتوب فقط في الكتاب المقدّس، وهما:

١"– **"كلمة الله"**: هذا التّعبير وإن أطلق أحياناً وبصورة نادرة في الكتاب المقدّس على ما هو مكتوب، إلاّ أنّه يطلق بصورة متواترة وأكثر تحديداً وشمولاً على البشارة الشّفهيّة، أي على التّسليم فماً لفم:

"وإذ كان الجمع يزدحم عليه (على يسوع) **ليسمع كلمة الله** كان واقفاً عند بحيرة جنيسّارت"(١١٩).

"ولمّا صارا (بولس وبرنابا) في سلاميس **ناديا بكلمة الله** في مجامع اليهود"(١٢٠).

"من أجل ذلك نحن أيضاً نشكر الله بلا انقطاع لأنّكم إذ تسلّمتم منّا **كلمة خبر من الله** قبلتموها لا ككلمة أناس بل كما هي بالحقيقة **ككلمة الله** الّتي تعمل أيضاً فيكم أنتم المؤمنين"(١٢١).

"أذكروا مرشديكم الّذين **كلّموكم** بكلمة الله"(١٢٢).

"وأمّا **كلمة الرّبّ** فتثبت إلى الأبد. وهذه هي الكلمة الّتي **بُشّرتم بها**"(١٢٣).

٢"– **موحى به من الله:** بولس الرّسول يؤكّد أنّ "كلّ الكتاب هو موحى به من الله"(١٢٤). وبطرس الرّسول يوضّح "لأنّه لم تأت نبوءة قط بمشيئة إنسان بل تكلّم أناس الله

(١١٧) ٢ تس ٣: ٦
(١١٨) ١ كور ١١: ١
(١١٩) لو ٥: ١
(١٢٠) أع ١٣: ٥، ٨، ٤٤، ٤٦ و ٦: ٢، ٧ و ٨: ١٤ و ١١: ١ و ١٢: ٢٤ و ١٧: ١٣ و ١٨ إلخ...
(١٢١) ١ تس ٢: ١٣
(١٢٢) عب ١٣: ٧
(١٢٣) ١ بط ١: ٢٥ و ٢٣ إلخ...
(١٢٤) ٢ تيم ٣: ١٦

القدّيسون مسوقين من الرّوح القدس"[١٢٥]. في هذا أيضاً يتساوى جوهريّاً التّقليد الشّفهيّ الرّسوليّ مع المكتوب. لأنّه فعلاً لم تُسلّم بشارة شفهيّة قط بمشيئة إنسان بل **تكلّم** أناس الله القدّيسون (الرّسل) **مسوقين من الرّوح القدس:**

"لكنّكم ستنالون قوّة متى **حلّ الرّوح القدس** عليكم وتكونون لي **شهوداً** في أورشليم وفي كلّ اليهوديّة والسّامرة وإلى أقصى الأرض"[١٢٦].

"**وكلامي وكرازتي** لم يكونا **بكلام** الحكمة الإنسانيّة المقنع بل **ببرهان الرّوح** والقوّة..."[١٢٧].

"الّتي **نتكلّم بها** أيضاً لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانيّة بل بما **يعلّمه الرّوح القدس**..."[١٢٨].

"إنّ إنجيلنا (بشارتنا الشّفهيّة) لم يصر لكم **بالكلام** فقط بل بالقوّة أيضاً وبالرّوح القدس"[١٢٩].

وحتّى محافظة الكنيسة على الوديعة فهي تتمّ بالرّوح القدس السّاكن فيها:

"إحفظ الوديعة الصّالحة بالرّوح القدس السّاكن فينا"[١٣٠].

إلى ذلك، واضح أنّ وحدانيّة وتساوي أهمّيّة كلّ من نوعي التّقليد الواحد، تعني ضمناً أنّ كلاً منهما يتكامل مع الآخر كونهما معاً ضرورة أساسيّة في كيان الكنيسة وحياتها. فالكنيسة الأولى، كما رأينا، سمعت من أفواه الرّسل، ورأت وعاشت عبر شركتهم مع الثّالوث أموراً كثيرة تتّصل بحياتها مع الله تفوق الحصر والتحديد. لذلك لا غرابة إن حافظت على قضايا كثيرة تسلّمتها منهم شفهيّاً وحياتيّاً لم تُسجّل في أسفار العهد الجديد. وبالطّبع لم يكن ممكناً ولا ثمّة داع لأنّ يحاول التّلاميذ قسراً تضمين الأسفار المكتوبة وحدها كلّ شيء، طالما أنّهم جميعاً كانوا حينها يسلّمون كلّ شيء

(١٢٥) ٢ بط ١: ٢١
(١٢٦) أع ١: ٨
(١٢٧) ١ كور ٢: ٤
(١٢٨) ١ كور ٢: ١٣
(١٢٩) ١ تس ١: ٥
(١٣٠) ٢ تيم ١: ١٤

شخصيّاً لأعضاء الكنائس في إطار التّقليد غير المكتوب، أي الحياة الإلهيّة الّتي كانوا يعيشونها معهم – من خدمة للكلمة الإلهيّة يتمّمونها وأسرار إلهيّة يقيمونها، وصلوات جماعيّة يرفعونها، وتنظيم للشركة يقودونها – جنباً إلى جنب مع ما كان البعض منهم يسلّمه أحياناً كتابة (أسفار العهد الجديد) لأسباب تتّفق مع مشيئة الرّبّ وتستدعيها احتياجات الكنيسة.

بالمقابل فإنّ التّقليد المكتوب وإن ظلّ يحتاج إلى تفسير الكنيسة لنصوصه على ضوء ما تسلّمته عن الرّسل من تقليد غير مكتوب، إلاّ أنّ الكتاب المقدّس بدوره كان له دور مهم ولا يزال في المحافظة على تقليد الكنيسة الحيّ الّذي تعيشه على الأرض. إذ ساهم في تثبيته وتكميله وتنقيته، وتداخل معه وحتّى في صميم تعابيره المتجدّدة عن إيمان الكنيسة وعقائدها وشركتها وليتورجيّتها مشكّلاً معه تقليداً واحداً حيّاً حاملاً خلاصاً وحياةً أبديّة لأعضائها عبر الأجيال.

وبالتّأكيد فهذه المعرفة للمساواة في قيمة نوعي التّقليد الواحد (المكتوب وغير المكتوب) ووحدانيّة الاثنين كانت تعيشها كنيسة القرون الأولى الّتي أطاعت ووعت وصيّة الرّسل في المحافظة على كلّ من الاثنين نظراً لأهميّتهما معاً كوديعة واحدة. وقد عبّر عن ذلك آباء تلك الفترة بطرق مختلفة. من هذه التّعابير ننقل على سبيل المثال:

"لا يعتبر أيّ أمر أنّه حقّ إلاّ إذا كان لا يتناقض قط مع التّقليد الكنسيّ الرّسوليّ"(١٣١).

"ولكن مع هذه، لنرَ ما كان منذ البدء تقليد (تسليم) وتعليم وإيمان الكنيسة الجامعة الّذي أعطاه الرّبّ وكرز به الرّسل وحفظه الآباء، لأنّه عليه تأسّست الكنيسة، فمن يسقط منه لا يستطيع أن يكون ولا حتّى أن يقال عنه إنّه مسيحيّ"(١٣٢).

"البعض من العقائد والكرازات المحفوظة في الكنيسة حصلنا عليه من التّعاليم المكتوبة (الأسفار المقدّسة) والبعض الآخر قبلناه من تسليم الرّسل (Παράδοσις) الّذي انتقل

(١٣١) العلاّمة أورجانّس، في المبادىء، لدى الأب متّى المسكين، التّقليد وأهمّيّته في الإيمان المسيحيّ، مطبعة دير القدّيس أنبا مقار، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧، ص ٤٨. Origen, De Princip. Proem, 1.

(١٣٢) M. Αθανασίυ, Πρὸς Σεραπίωνα ΄Επιστ. A', P.G. 26, 28, σ. 593 - 596.
القدّيس أثناسيوس الكبير، الرّسالة الأولى إلى سيرابيون، مين ٢٦، ف ٢٨، ص ٥٩٣ – ٥٩٦.

إلينا أسراريّاً (έν μυστηρίῳ) (عن طريق الأسرار) وكلاهما له القوّة ذاتها (أو الأهمّيّة) من أجل التّقوى (الإيمان)... فإذا حاولنا أن نتخلّى عن العوائد غير المكتوبة بداعي أن أهمّيّتها ليست كبيرة، لا ننتبه بأنّنا نسيء إلى البشارة في صميم حيويّتها، أو بالأحرى نحوّل الكرازة إلى اسم بلا مسمّى"[١٣٣].

إلى هذه، بديهيّ أن تتّفق مع تعابير الآباء في النّظرة إلى أهمّيّة التّسليم ووحدانيّته وعدم الفصل بين نوعيه الشّفهيّ والمكتوب، تحديدات مجامعهم المسكونيّة ومنها مثلاً ما قالوه في مقدّمة حكم المجمع الخامس:

"لذلك وقد اجتمعنا كلّنا اعترفنا قبل كلّ شيء بإيجاز بأنّنا نعتصم بالإيمان الّذي سلّمه ربّنا يسوع المسيح الإله الحقيقيّ إلى رسله القدّيسين وبواسطتهم إلى الكنائس المقدّسة والّذي سلّمه بعدهم الآباء والمعلّمون القدّيسون إلى الشّعب الّذي هو تحت رعايتهم"[١٣٤].

تسليم الرّسل الواحد يصير تسليم الكنيسة الحيّ:

كان الرّسل حريصين وهم يبشّرون الكنائس على أن ينتخبوا لهم شيوخاً (Πεσβύτεροι أي كهنة) في كلّ كنيسة[١٣٥]، كي يرعوا كنيسة الله الّتي اقتناها بدمه[١٣٦]. إنّما هاجسهم الأكبر كان أن يسلّموا أعضاءها بأمانة ما تسلّموه من الرّبّ[١٣٧]. لذلك كانت وصيّتهم للّذين انتخبوهم من بين الشّيوخ كي يكونوا مشرفين (ἐπιτκοποι أي أساقفة أو رؤساء كهنة) على الكنائس في المناطق الّتي قاموا بتبشيرها مثل تيموثاوس وتيطس، لا أن يقيموا شيوخاً في كلّ كنيسة[١٣٨] فحسب، بل وأن ما

---

(١٣٣) M. Βασιλείου, Περί Αγίου Πνεύματος , P.G. 32, Κεφ. KZ', 66, σ. 188.
القدّيس باسيليوس الكبير، في الرّوح القدس، مين ٣٢، ف ٢٧، ٦٦، ص ١٨٨.

(١٣٤) حكم المجمع المسكونيّ الخامس، مجموعة الشّرع الكنسيّ، جمع وترجمة حنانيا كساب، منشورات النّور، ١٩٨٥، ص ٤٥٩.

(١٣٥) أع ١٤: ٢٣

(١٣٦) أع ٢٠: ٢٨

(١٣٧) ١ كور ١١: ٢٣ و ١٥: ٣؛ غل ١: ١١ – ١٢ إلخ...

(١٣٨) تي ١: ٥

سمعوه منهم (من الرّسل) بشهود كثيرين أن يودعوه "أناساً أمناء يكونون أكفّاء أن يعلّموا آخرين أيضاً"(١٣٩).

١. تسليم الرّسل وشروط تسلّمه

هذا يعني بوضوح أنّ الشّرط الأوّل لمن يحقّ له أن يُعلِّم في كنيسة المسيح، راعياً كان أم مبشّراً أم معلّماً، أن يكون قد سمع من الرّسل أيّ قد تسلّم منهم وعاش بأمانة لا التّسليم المكتوب (الكتاب المقدّس) وحده فحسب، بل التّسليم الواحد المكتوب وغير المكتوب (الوديعة)، الّذي تسلّمته الكنيسة وتسلّمه. وأن يُودِعه بدوره أناساً أكفّاء أن يعلّموا آخرين أيضاً.

الشّرط الثّانيّ هو أن تكون عنده الكفاءة أن يُعلّم آخرين، أي أن تكون عنده موهبة التّعليم والّتي تكلّم عنها بخاصّة بولس نفسه، وأظهر أنّ المواهب أو النّعم الإلهيّة المتعدّدة، ومن بينها موهبة التّعليم، يعطيها الله الواحد "بروحه الواحد قاسماً لكلّ واحد بمفرده كما يشاء"(١٤٠)، "حسب قياس هبة المسيح"(١٤١)، والهدف من إعطائها هو: "تكميل القدّيسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح"(١٤٢).

وعموماً ترتبط موهبة التّعليم، فضلاً عن إيمان صاحبها واستعداداته الأوليّة، بما أعطي له من نعمة عن طريق الأسرار الإلهيّة وخاصّة وضع اليد: "أذكّرك (بولس لتلميذه تيموثاوس) أن **تضرم** أيضاً موهبة الله الّتي فيك بوضع يدي"(١٤٣).

بالنتيجة الموهبة هي من الله، لكنّ الّذي أعطيت له عليه أن يضرمها باستمرار، فكيف يتمّ له ذلك؟

أوّلاً: بمحافظته على الوديعة من خلال عيشه لها وتسليمها بالرّوح القدس السّاكن فيه:

---

(١٣٩) ٢ تيم ٢: ٢

(١٤٠) ١ كور ١٢: ١١

(١٤١) أف ٤: ٧

(١٤٢) أف ٤: ١١؛ أنظر أيضاً: رو ١٢: ٦ – ٨ و ١ كور ١٢: ٢٨ – ٢٩

(١٤٣) ١ تيم ١: ٦

"تمسّك بصورة (بمثال) الكلام الصّحيح الّذي سمعته منّي في الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع. إحفظ الوديعة الصّالحة بالرّوح القدس السّاكن فينا"(١٤٤).

"إلى أن أجيء أعكف على القراءة والوعظ والتّعليم. لا تهمل الموهبة الّتي فيك المعطاة لك بالنبوّة مع وضع أيدي المشيخة"(١٤٥).

هكذا فاضرام التّلميذ لموهبة الله فيه يتمّ من خلال تمسّكه لا فقط بما يقرأه من كتابات مقدّسة مثل الرّسائل الّتي أرسلها له معلّمه، بل وبما سمعه منه من كلام صحيح، أي بالتّسليم الواحد الشّفهيّ والمكتوب. لكن هذا التّمسّك يتمّ في الإيمان والمحبّة في المسيح يسوع. لأنّه كيف يمكن أن يتمسّك التّلميذ بصورة الكلام الصّحيح المتعلّق بالمسيح يسوع إن لم يكن قد آمن به؟ وإن كان قد آمن به حقّاً فهو يحبّه. وإن كان يحبّه حقّاً يحفظ وصاياه، وهو (يسوع) يطلب من الآب فيعطيه معزّياً آخر ليمكث معه ويكون فيه(١٤٦). عندها يستطيع أن "يحفظ الوديعة بالرّوح القدس السّاكن فيه".

هذا ما حصل تماماً مع الرّسول بولس نفسه عندما تعرّف على الرّبّ يسوع وآمن حقّاً به وأحبّه، فعرّفه على الوديعة(١٤٧) وقوّاه إذ "حسبه أميناً وجعله للخدمة"(١٤٨)، وفيه "تفاضلت نعمة ربّنا جدّاً مع الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع"(١٤٩).

هذا يؤكّد من جديد ما أشرنا إليه سابقاً، وهو أنّ تقليد الرّسل الحيّ لا يسلّم بطريقة جامدة حرفيّة، ولا يُتعرّف عليه فقط من خلال القراءة أو الدّراسات. تسليم الرّسل هو حياة الكنيسة ذاتها الّتي يعرفها ويستطيع تسليمها فقط الّذين يعيشونها. ومن هم هؤلاء سوى الّذين تسلّموا البشارة عن المسيح فآمنوا به وأحبّوه حقّاً فحفظوا وصاياه؟ لهذا اضطرمت قلوبهم بنار الرّوح القدس فصاروا هم أنفسهم مثالاً حيّاً للكلام الصّحيح المتسلّم عن الرّسل أي "للإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع".

---

(١٤٤) ٢ تيم ١: ١٣ – ١٤

(١٤٥) ١ تيم ٤: ١٣ – ١٤

(١٤٦) يو ١٤: ١٥ – ١٧

(١٤٧) غل ١: ١١ – ١٢

(١٤٨) ١ تيم ١: ١٢

(١٤٩) ١ تيم ١: ١٤

ثانياً: بتكرّسه الكلّيّ لتسليم الوديعة محتملاً المشقّات:

"فتقوَّ أنت يا ابني بالنّعمة الّتي في المسيح يسوع . . . فاشترك أنت في احتمال المشقّات كجنديّ صالح ليسوع المسيح. ليس أحد وهو يتجنّد يرتبك بأعمال الحياة لكي يرضي من جنّده. وأيضاً إن كان أحد يجاهد لا يُكلَّل إن لم يجاهد قانونيّاً"(١٥٠).

يتقوّى إذن الرّسول أو الرّاعي أو المعلّم بالنّعمة الّتي في المسيح – وهو ما يعني أيضاً أن تضرم موهبة الله الّتي فيه – باشتراكه في احتمال المشقّات كجنديّ صالح ليسوع مكرّساً ذاته بالكلّيّة ليسوع. فلا يرتبك بأعمال الحياة بل يجاهد قانونيّاً كي ينال الإكليل أو المكافأة. والمثال هو بولس نفسه الّذي كان يحتمل "المشقّات حتّى القيود كمذنب"، وكان يصبر "على كلّ شيء لأجل المختارين لكي يحصلوا هم أيضاً على الخلاص الّذي في المسيح يسوع مع مجد أبديّ"(١٥١). أمّا الإكليل فهو، بحسب تعبير بولس: "صادقة هي الكلمة أنّه إن كنّا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه. إن كنّا نصبر فسنملك أيضاً معه"(١٥٢). أو: "إن كنّا نتألّم معه لكي نتمجّد أيضاً معه"(١٥٣).

٢. آباء الكنيسة القدّيسون يتسلّمون ويسلّمون

وبالفعل على مثال بولس والرّسل الآخرين، احتمل تلاميذهم الأمناء المشقّات في جهاد قانونيّ، فأضرموا موهبة الله الّتي أخذوها منهم، منكرين ذواتهم من أجل خلاص الآخرين. كذلك على مثال بولس والرّسل الآخرين سلّم هؤلاء التّلاميذ الأمناء بدورهم الوديعة الصّالحة وموهبة الله بوضع اليد لتلاميذ أمناء آخرين. وهكذا بالتّسلسل من جيل إلى جيل.

بناء على ذلك، لأنّ التّلاميذ الأمناء – وهم بعامّة أقلاء – صبروا "لأجل المختارين"، على مثال الرّسل، متمخّضين بهم "أيضاً إلى أن يتصوّر المسيح فيهم"(١٥٤)، صاروا لهم آباء

(١٥٠) ٢ تيم ٢: ١ – ٥
(١٥١) ٢ تيم ٢: ٩ – ١٠
(١٥٢) ٢ تيم ٢: ١١
(١٥٣) رو ٨: ١٧
(١٥٤) غل ٤: ١٩

لأنّهم هم "الّذين ولدوهم في المسيح يسوع"(١٥٥). وبهذا صاروا أيضاً آباء للكنيسة كلّها بقدوتهم ومثالهم الّتي تناقلتها الأجيال، وبما سلّموه من وديعة صالحة. ينطبق هذا الأمر بخاصّة على الآباء القدّيسين الّذين وصلتنا كتابات منهم، فصاروا آباء ومعلّمين لكلّ من قرأ كلامهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وكأنّ كلّ واحد منهم هو بالذّات ذلك الكاتب المتعلّم في ملكوت السّماوات الّذي تحدّث عنه السّيّد:

"كلّ كاتب متعلّم في ملكوت السّموات يشبه رجلاً ربّ بيت يخرج من كنزه جدداً وعتقاء"(١٥٦)، هذا معناه بوضوح أنّ الكاتب الّذي تعلّم أو تتلمذ في ملكوت السّموات، أي من الرّوح القدس السّاكن فيه، عندما يتكلّم أو يكتب يخرج من كنزه، أي من الوديعة الصّالحة، عتقاء، أي ما تسلّمه من الّذين قبله بلغتهم العتيقة، مثل الأنبياء والرّبّ يسوع والرّسل، من تسليم مكتوب وغير مكتوب. أمّا الجدد فهي ما يخرجه الكاتب نفسه من الوديعة ذاتها معبّراً عنها بأسلوب جديد يتناسب مع الأوضاع الجديدة.

وكما أنّ الوديعة الصّالحة لم تقتصر على ما كتبه الرّسل والتّلاميذ بل كانت قبلاً بشارتهم وتعليمهم الشّفهيّين والحياة الإلهيّة الّتي سلّموها وعاشوها مع أعضاء الكنائس الّتي أسّسوها، هكذا أيضاً استمرّت هذه البشارة والتّعليم بنوعيهما في إطار حياة الكنيسة الإلهيّة بعد رقادهم، يقودها في الكنائس تلاميذهم الأمناء على الوديعة مثل الآباء الرّسوليّين والآباء المدافعين والّذين أتوا بعدهم. على هذا النّحو صارت الوديعة أي تسليم الرّسل الواحد (المكتوب والشّفهيّ) هو الأساس الّذي بني عليه تسليم الكنيسة الحيّ المستمرّ كلاماً وحياة وكتابة من خلال الجدد والعتقاء الّتي كان يخرجها باستمرار من كنزهم آباء الكنيسة ومعلّموها ومؤمنوها في كلّ عصر وهم معاً "يواظبون على تعليم الرّسل والشّركة وكسر الخبز والصّلوات"(١٥٧).

من هنا يمكن القول إنّ الوديعة الصّالحة استمرّت أن تسلَّم إمّا من خلال تعابير الرّبّ يسوع وتلاميذه نفسها، وإمّا من خلال التّعابير الجديدة لتلاميذهم عبر الأجيال بما ينسجم مع اصطلاحات كلّ عصر وأساليبه اللغويّة والثّقافيّة، وبما يتناسب مع الظّروف

(١٥٥) ١ كور ٤: ١٥
(١٥٦) مت ١٣: ٥٢
(١٥٧) أع ٢: ٤٢

والأوضاع المستجدّة. وبالطّبع فهذه المساهمة المتواصلة لشعب الله وهو يعيش الوديعة الرّسوليّة، بإغنائها "بالجدد"، عبر المسيرة الخلاصيّة لأعضاء الكنيسة على الأرض، هي الّتي سمحت أن يُسمّى التّسليم الرّسوليّ الواحد أيضاً بتسليم الكنيسة.

٣. الله هو الضّامن لصحّة تسليم الكنيسة الواحد

وفي الواقع واجهت الكنيسة النّاشئة، طوال هذه المسيرة ولا تزال، صعوبات هائلة من الخارج والدّاخل لم تكن تخطر على بال بشر، إذ انفتحت عليها "أبواب الجحيم"، من اضطهادات أو مهاجمات أو مؤامرات أو هرطقات أو انشقاقات إلخ . . . لكنّها "لم تقو عليها"(١٥٨). والفضل في ذلك يرجع أوّلاً وأخيراً إلى بقاء السّيّد، بحسب وعده الصّادق، لا مع تلاميذه المباشرين فحسب، بل ومع كلّ تلاميذه الأمناء "إلى انقضاء الدّهر"(١٥٩). وكذلك إرساله إليهم المعزّي روح الحقّ الّذي "يرشدهم إلى جميع الحقّ"(١٦٠)، "ويمكث معهم إلى الأبد"(١٦١).

هذه هي الضّمانة الوحيدة لسلامة استمرار الكنيسة كواحدة جامعة مقدّسة رسوليّة. لأنّ الله وحده يعرف كيف يعتني بكنيسته ويحارب عنها ويحافظ على وديعتها على الرّغم من ضعف أمانة غالبية أعضائها وكثرة خطاياهم. كما أنّ مكوث الرّوح القدس في الكنيسة إلى الأبد يعني أنّه لم يكن يتكلّم فقط أثناء كتابة التّسليم المكتوب، أي من خلال الكتاب المقدّس وحده، كما يظنّ البعض، ولا حتّى عبر رعايته لكنيسة القرون الأولى فقط وكأنّه حكر عليها وحدها. إنّه روح الحقّ الّذي أرشد إلى جميع الحقّ الرّسل والتّلاميذ القدّيسين أثناء بشارتهم الشّفهيّة والمكتوبة معاً. وهو نفسه الّذي أرشد ويرشد إلى جميع الحقّ رعاة ومعلّمي وآباء ومجاهدي الكنيسة القدّيسين في جميع أجيالها وإلى الأبد.

---

(١٥٨) مت ١٦: ١٨

(١٥٩) مت ٢٨: ٢٠

(١٦٠) يو ١٦: ١٣

(١٦١) يو ١٤: ١٦

من الإجراءات الّتي اتّخذتها الكنيسة في صراعها مع الهرطقات أنّها كانت تلجأ إلى عقد مجامع محلّيّة أو مسكونيّة حسب الحاجة. وكان الهدف غالباً أن يحدّد الأساقفة المجتمعون، على ضوء التّقليد الواحد الّذي تسلّمه كلٌّ منهم، الموضوع الإيماني المطروح بعبارات واصطلاحات واضحة قدر الإمكان. وبهذا كان يُقطع الطّريق أمام أي تحوير للحقيقة أو إساءة فهم يحدثه في أذهان المؤمنين أصحاب البدعة الّتي انعقد المجمع من أجل دحضها. ولأنّ تحديدات أعضاء هذه المجامع الّتي قبلتها الكنيسة استندت، بروح الله الّذي كان يحمله قدّيسون بينهم، إلى التّسليم الرّسوليّ الواحد وتتّفق جوهريّاً معه، لهذا أصبحت بهذه الصياغة الجديدة جزءاً مهمّاً من تسليم الكنيسة.

لكن قرارات هذه المجامع، عقائديّة كانت أم قانونيّة، لم تكن وحدها التّعابير الجديدة الّتي أطلقها آباؤها، فقد سبقت فترة انعقاد المجمع وتلت، أقوال وكتابات لهم أوسع وأشمل بكثير كان لها دور حاسم في تحديد موقف أعضاء المجمع وتوضيح قراراته، وبالتّالي موقف الكنيسة كلّها الّذي تسلّمته عنهم.

إنّما ما يفوق بما لا يُقاس ما قاله وما كتبه آباء المجامع المسكونيّة أو المحلّيّة هو ما قاله وما كتبه وما عبّر عنه آباء الكنيسة بعامّة ومؤمنوها الأحياء. هذا شكّل تراثاً ضخماً للغاية يُضاف إليه جددٌ كلَّ يوم من نتاج قدّيسين كثر انتسبوا إلى شعوب منوّعة في بلاد مختلفة وأزمنة متفاوتة، على الرّغم من الكثير والكثير جدّاً الّذي فُقد عبر عوادي الزّمن وظروفه، والكثير الّذي لم يُنشر بعد.

وبديهيٌّ أن تتعدّد اللّغات الّتي كتب فيها هؤلاء القدّيسون بتعدّد لغات الشّعوب الّتي خرجوا منها، وأن تتنوّع مواضيعهم فتشمل كلّ ما له علاقة بخلاص وتألّه البشر من خلال سائر طرق التّعبير المعروفة وفقاً لتنوّع المواهب المختلفة. على سبيل المثال لا الحصر: عظات، رسائل رعائيّة أو ظرفيّة، مؤلّفات دفاعيّة أو عقائديّة أو روحيّة أو تفسيريّة للكتب المقدّسة، سير شهداء أو قدّيسين بعامّة، صلوات أو نصوص ليتورجيّة نثريّة أو شعريّة، تراتيل، ألحان موسيقيّة كنسيّة، رسم إيقونات، تصميم أبنية أو أدوات كنسيّة إلخ . . .

أمّا من جهة حفظ هذا التّراث فلم تكن المعضلة الأساسيّة هي المحافظة عليه كي لا يضيع أو يفقد منه، بمقدار السّهر عليه كي لا يتشوّه أو يتغيّر أو يتسرّب إليه ما هو غريب

عن الوديعة. لهذا كما تمسّك تلاميذ الرّسل المباشرين بتسليمات معلّميهم الشّفهيّة والمكتوبة، هكذا حرص تلاميذهم والّذين أتوا بعدهم، لا على سلامة الوديعة الرّسوليّة فحسب، بل وعلى أن لا تتبنّى الكنيسة تعابير جديدة عن الإيمان بيسوع المسيح إلاّ إذا كانت في اتّفاق تامّ مع "صورة الكلام الصّحيح" الّذي تسلّمته الكنيسة عن الرّسل. مثلاً نذكّر برفض الآباء الأقدمين لا فقط للكتب المنحولة (apocrypha) المنسوبة للرّسل، بل وأيضاً لتقاليد شفهيّة قديمة نسبت كذباً أو خطأً إليهم. وقد استند الآباء في هذا الرّفض إلى ما يمكن تسميته إجماع الكنائس (consensus)، بناء على ما تسلّمته كلّ منها من تسليمات رسوليّة صحيحة.

وقد نسجت الكنيسة فيما بعد على مثال هؤلاء. فكم من المجامع عقدت في تاريخها بهدف أن تكون من مجامعها المحلّيّة أو المسكونيّة لكنّها لم تعترف بها. وكم وكم من مؤلّفات لا حصر لها عبر مختلف العصور حكمت عليها. أو على الأقلّ تجاهلت البعض منها فلم تحسب كتّابها آباء لها، فبقيوا مجرّد كتّاب مسيحيّين. أكثر من ذلك ثمّة آراء شخصيّة في مواضيع غير أساسيّة، وردت عند بعض الآباء القدّيسين أنفسهم، لم تتبنّاها الكنيسة بل اعتبرتها آراء خاصّة بهم (θεολογούμενα).

وهنا لا بدّ أن نسأل من هو الحَكَم في رفض أو قبول التّعابير الجديدة الّتي طرحت في تاريخ الكنيسة من قرارات مجامع أو اصطلاحات أو مواقف عقائديّة أو قواعد سلوك أو أنماط حياة أو صلوات أو تراتيل أو ترتيبات وأصول روحيّة تتعلّق بخدم إلهيّة أو أعياد أو أصوام أو إيقونات إلخ . . . ؟ بتعبير آخر، ما هو هذا العامل الأساسيّ غير المنظور الّذي كان يميّز، عبر تنوّع الأزمنة والأمكنة والظّروف واللّغات والمواهب ووسائل التّعبير، بين عناصر مختلفة فيرفض ما ينبغي رفضه أو يعدّل أو يطوّر ما يناسب تطويره كي يحتفظ بالجدد والعتقاء الّتي تليق بكنز تسليم الكنيسة؟ علماً بأنّ الرّفض أو القبول أو التّعديل لم تكن تتمّ بسهولة بل غالباً بتمخّض شديد، يتحمّل أثناءها الآباء المجاهدون مشقّات كثيرة، ويمكن أن يتعرّضوا لتعذيبات شديدة وحتّى لاستشهاد. ما هو غريب فعلاً في تسليم الكنيسة هو الرؤية الواحدة والخطّ الواحد الّذي جمَعَ خلال القرون الطّويلة بين مختلف التّعابير الجديدة في تواصل وانسجام مدهشين مع الوديعة الصّالحة في روحانيّتها واستقامة رأيها وهاجسها الدّؤوب المتّجه نحو الخلاص ومعرفة الله.

البعض يسمّون هذا العامِل المميِّز أو الحَكَم الأعلى وجدان الكنيسة. والبعض الآخر يحصرونه في شخص ينسبون إليه العصمة في شؤون الإيمان والآداب، وآخرون يظنّونه الهيئة الأسقفيّة أو المجامع. أمّا الّذين يرفضون التّسليم، فيجعلون الحَكَم في قضايا الإيمان الكتاب المقدّس وحده.

عند بولس الرّسول يبدو وكأنّ الحَكَم المميِّز في تسليمات الكنيسة هو الكنيسة نفسها إذ يسمّيها "عمود الحقّ وقاعدته"(١٦٢). لكنّه يوضّح أيضاً أنّ أعضاءها الأحياء الّذين يتمسّكون بتسليمها في "الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع" هم الّذين يحفظون "الوديعة الصّالحة بالرّوح القدس السّاكن فيهم"(١٦٣). وبالتّالي يتكلّمون "لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانيّة بل بما يعلّمه الرّوح القدس قارنين الرّوحيّات بالرّوحيّات"(١٦٤).

هذا كلّه يتّفق مع ما علّمه الرّبّ يسوع أنّه نتيجة للعلاقة بينه وبين الّذين يتقدّسون في كنيسته، والّتي تشبه علاقة الكرمة بأغصانها يأتي ثمرهم الكثير:

"أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الّذي يثبت فيَّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير لأنّكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً"(١٦٥).

بكلمات أخرى، إنّ كلّ الثّمار الكثيرة الّتي أعطاها آباء وقدّيسو كنيسة المسيح هي حصيلة لإيمانهم ومحبّتهم وثباتهم في المسيح، ولإرشاد روح الحقّ لهم إلى جميع الحقّ(١٦٦). فماذا تكون هذه الثّمار إلاّ جدد التّسليم الّذي يعيشه القدّيسون في كنيسة المسيح؟ ومن يكون الحَكَم على هذه الجدد إلاّ الّذي "بدونه لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً"(١٦٧)؟ وأليس هو الحافظ لكنيسته ولتسليمها والعجيب في قدّيسيه، الآب والابن والرّوح القدس الإله الواحد "**له المجد في الكنيسة في المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدّهور. آمين**"(١٦٨).

---

(١٦٢) ١ تيم ٣: ١٥
(١٦٣) ٢ تيم ١: ١٣ – ١٤
(١٦٤) ١ كور ٢: ١٣
(١٦٥) يو ١٥: ٥
(١٦٦) يو ١٦: ١٣
(١٦٧) يو ١٥: ٥
(١٦٨) أف ٣: ٢١

التّسليم الرّسوليّ والبدع:

على هذا الأساس صار هاجس أعضاء الكنيسة وبخاصّة آبائها ومعلّميها، هو السّهر أن لا تتغيّر الوديعة المسلّمة إليهم جوهريّاً بشيء، وهو ما ينسجم تماماً مع توصيات الرّسل المشدِّدة الّتي أشرنا إليها أعلاه، ومنها: "تمسّك بصورة الكلام "الصّحيح" الّذي سمعته منّي في الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع. إحفظ الوديعة الصّالحة بالرّوح القدس السّاكن فينا"[١٦٩]. وهنا نلفت الانتباه أنّ صفة الصّحيح (ὑγιαίνουσα) والّتي تلازم عادة "الكلام" أو "التّعليم" عند الرّسول بولس[١٧٠] هي مرادفة لصفة "القويم" أو "الصّحيح" (ὀρθή) والّتي تلازم عادة "الرّأي" مشكّلة معه صفة واحدة "القويم الرّأي" (ὀρθόδοξος)، هذه الصّفة الأخيرة أي الأرثوذكسيّ سوف يستعملها آباء الكنيسة كثيراً ليصفوا بها من تمسّك بصورة "الكلام الصّحيح" الّذي تسلّمته الكنيسة عن الرّسل، على عكس المبتدعين الّذين تبنّوا بدعة أو هرطقة (αἵρεσις) أي ابتدعوا رأياً غير قويم لم تتسلّمه الكنيسة عن الرّسل.

وعلى ذكر البدع والانحرافات عن التّسليم الرّسوليّ، فمن المعروف للجميع موقف الآباء الصّارم والثّابت ضدّها في جميع عصورهم، والّذي ينتقدهم عليه كثيرون من المسيحيّين في زمننا الحاضر لأسباب مختلفة، وحتّى يستهزئون به. وهنا لا بدّ من التّوضيح أوّلاً أنّ موقف الآباء هذا لم يكن موقفاً خاصّاً بهم ابتدعوه هم، بل كان موقف الرّسل ذاته الّذي تسلّموه عنهم. وقبل الكلّ كان موقف ربّ الجميع الإله المتجسّد يسوع.

ها هو **الرّسول بولس** يؤكّد لأعضاء الكنائس – وفقاً لما تسلّمه عن الرّبّ – أنّه لا بدّ أن يكون بينهم بدع[١٧١]، وأنّه "سيدخل بينهم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرّعيّة"، وحتّى من بين شيوخ الكنيسة نفسها "سيقوم رجال يتكلّمون بأمور ملتوية ليجتذبوا التّلاميذ وراءهم"[١٧٢]. "لأنّه سيكون وقت لا يحتملون فيه التّعليم الصّحيح بل حسب

(١٦٩) ٢ تيم ١: ١٣ – ١٤
(١٧٠) ١ تيم ١: ١٠ و ٦: ٣؛ ٢ تيم ١: ١٣ و ٤: ٤ إلخ . . .
(١٧١) ١ كور ١١: ١٩
(١٧٢) أع ٢٠: ٢٩ – ٣٠

شهواتهم الخاصّة يجمعون لهم معلّمين . . . فيصرفون مسامعهم عن الحقّ وينحرفون إلى الخرافات"(١٧٣).

وبالفعل ظهرت في أيّامه جماعات انحرفت عن "التّعليم الصّحيح" الّذي سلّمه الرّسل مثل الّذين تمسّكوا بالنّاموس اليهوديّ كشرط أساسيّ للخلاص(١٧٤)، أو خضعوا لتأثيرات فلسفيّة أو وثنيّة(١٧٥) مثل أصحاب المعرفة (γνῶσις الغنّوصيّين)(١٧٦) وغيرهم. لهذا كان موقفه حازماً غير متساهل تجاه هؤلاء جميعاً، مع تشديده المستمرّ على التّمسّك بتعليم الرّسل الصّحيح والمحافظة على الوديعة:

"وأطلب إليكم أيّها الإخوة أن تلاحظوا الّذين يصنعون الشّقاقات والعثرات **خلافاً للتّعليم الّذي تعلّمتموه وأعرضوا عنهم**. لأنّ مثل هؤلاء لا يخدمون ربّنا يسوع المسيح بل بطونهم. وبالكلام الطّيّب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السّلماء"(١٧٧).

"إنّي أتعجّب أنّكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الّذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل (بشارة) آخر ليس هو آخر غير أنّه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحوّلوا إنجيل المسيح. ولكن **إن بشّرناكم نحن أو ملاك من السّماء بغير ما بشّرناكم فليكن أناثيما**. كما سبقنا فقلنا. أقول الآن أيضاً **إن كان أحد يبشّركم بغير ما قبلتم فليكن أناثيما**"(١٧٨).

"يا تيموثاوس **احفظ الوديعة معرضاً عن الكلام الدّنس ومخالفات "المعرفة"** (γνῶσις) الكاذبة الاسم الّتي إذ تظاهر بها قوم زاغوا من جهّة الإيمان"(١٧٩).

"الرّجل المبتدع بعد الإنذار مرّة ومرّتين **أعرض عنه عالماً أنّ مثل هذا قد انحرف وهو يخطئ محكوماً عليه من نفسه**"(١٨٠).

---

(١٧٣) ٢ تيم ٤: ٣؛ أنظر ١ تيم ٤: ١ و ٢ تيم ٣: ٦ – ٩ إلخ . . .

(١٧٤) أع ١٥: ١ – ٢ و ٢٤؛ كول ٢: ١٦؛ غل ١: ٦ و ٢: ٣ – ٤؛ رو ١٦: ١٧ – ١٨ إلخ . . .

(١٧٥) كول ٢: ٨ و ١٨

(١٧٦) ١ تيم ٦: ٢٠

(١٧٧) رو ١٦: ١٧ – ١٨

(١٧٨) غل ١: ٦ – ٨

(١٧٩) ١ تيم ٦: ٢٠

(١٨٠) تي ٣: ١٠

وها هو **بطرس الرّسول** يؤكّد تحقيق أقوال المسيح الرّبّ عن ظهور الأنبياء الكذبة في العهد الجديد. ومن يكون هؤلاء سوى المعلّمين الكذبة الّذين يقولون للنّاس كذباً باسم الرّبّ ما يودّون سماعه؟ أي ما يتّفق مع أهواء سامعيهم وشهواتهم، لا ما يتّفق مع مشيئة الرّبّ؛ تماماً كما كان يفعل الأنبياء الكذبة في العهد القديم. لذلك يجلبون على أنفسهم وعلى الكثيرين الّذين يتبعوهم هلاكاً سريعاً:

"ولكن كان أيضاً في الشّعب أنبياء كذبة كما سيكون فيكم أيضاً **معلّمون كذبة الّذين يدسّون بدع هلاك** وإذ هم ينكرون الرّبّ الّذي اشتراهم **يجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً وسيتبع كثيرون تهلكاتهم** الّذين بسببهم يُجدّف على طريق الحقّ"(١٨١).

ولماذا يكذب الهراطقة باسم الرّبّ؟ الدّافع الحقيقيّ هو أيضاً أهواؤهم وشهواتهم ولذلك "يرتدّون عن الوصيّة المقدّسة المسلّمة لهم" الّتي تؤدّي إلى الحياة، فيواجهون الدّينونة الحتميّة والهلاك الأبديّ:

"وهم في الطّمع يتّجرون بكم بأقوال مصنّعة الّذين دينونتهم منذ القديم لا تتوانى وهلاكهم لا ينعس"(١٨٢).

وها هو **يهوذا** يخصّص رسالته الوحيدة كلّها تقريباً للموضوع ذاته الّذي خصّص له بطرس الرّسول الجزء الأكبر من رسالته الثّانية، أي لمهاجمة الأنبياء الكذبة الّذين قد يكونون المبتدعين أنفسهم الّذين عناهم الرّسول بطرس. وعلى ما يبدو فإنّ أولئك المعلّمين الكذبة كانوا يجمعون بين الهرطقة الإيمانيّة وبين الدّعوة لإباحة الفجور دون الخوف من عقاب الله، ولهذا يُنذرهم، مذكّراً بأمثلة مختلفة معروفة عند اليهود، بدينونة أبديّة لا مفرّ منها:

"لأنّه دخل خلسة أناس قد كتبوا منذ القديم لهذه الدّينونة فُجّار يحوّلون نعمة إلهنا إلى الدّعارة وينكرون سيّدنا الوحيد وربّنا يسوع المسيح . . ."(١٨٣).

أمّا الهدف من الكتابة فهو حرصه على خلاص المؤمنين محذّراً من الهرطقات

(١٨١) ٢ بط ٢: ١ – ٢
(١٨٢) ٢ بط ٢: ٣
(١٨٣) يه: ٤ – ١٩

ومذكّراً إيّاهم بأن "يبنوا أنفسهم على إيمانهم الأقدس"(١٨٤)، "المسلّم مرّة للقدّيسين"(١٨٥).

وها هو **الرّسول الحبيب يوحنّا** بدوره يُذكّر أعضاء الكنائس في رسالته الأولى، بما سبق أن سمعوه من الرّسل عن نبوّات المسيح المتعلّقة بالأنبياء الكذبة وضدّ المسيح. فيؤكّد لهم أنّ ساعة تحقيق هذه النّبوّات قد بدأت، لأنّه "قد صار الآن أضدّاد المسيح كثيرون"(١٨٦). كما شدّد على الحاجة إلى امتحان الأرواح وعدم تصديق كلّ روح "لأنّ **أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم**"(١٨٧). وبالتأكيد فهؤلاء هم هراطقة مسيحيّون تحديداً، لأنّه: "منّا خرجوا لكنّهم لم يكونوا منّا لأنّهم لو كانوا منّا لبقوا معنا لكن ليظهروا أنّهم ليسوا جميعاً منّا"(١٨٨). وهرطقتهم الأساسيّة هي أنّهم "لا يعترفون بيسوع المسيح أنّه قد جاء في الجسد"، ولذلك ليسوا هم من الله(١٨٩).

أمّا موقفه الصّارم منهم فهو يظهر بوضوح أكبر في رسالته الثّانية:

"لأنّه قد دخل إلى العالم مضلّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً في الجسد. **هذا هو المضلُّ والضّدُّ للمسيح . . . كلّ من تعدّى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً. إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التّعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلام. لأنّ من يسلّم عليه يشترك في أعماله الشّريرة**"(١٩٠).

هكذا يتّضح لنا بجلاء أنّ موقف آباء الكنيسة الحازم على مدى الأزمان من البدع هو بالذّات موقف جميع الرّسل دون استثناء، والّذي بلا شكّ تسلّموه بدورهم عن ربّهم ومعلّمهم الّذي كان أوّل من حذّر من خطورة ضلال مَن وصفهم بالأنبياء الكذبة والذّئاب الخاطفة:

---

(١٨٤) يه: ٢٠
(١٨٥) يه: ٣
(١٨٦) ١ يو ٢: ١٨
(١٨٧) ١ يو ٤: ١
(١٨٨) ١ يو ٢: ١٩
(١٨٩) ١ يو ٤: ٢ – ٣
(١٩٠) ٢ يو: ٧ – ١٠

"**احترزوا من الأنبياء الكذبة الّذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنّهم من داخل ذئاب خاطفة.** من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشّوك عنباً أو من الحسك تيناً . . . كلّ شجرة لا تصنع ثمراً جيّداً تقطع وتلقى في النّار"(١٩١).

"**ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرين** . . ."(١٩٢).

وبالطّبع فموقف الّذي "السّماء والأرض تزولان ولكن كلامه لا يزول"(١٩٣) لا يمكن أن يتغيّر بتغيّر الأزمان، لأنّه "هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد"(١٩٤). أوضح دليل لعدم تغيّر موقفه تجاه البدع هو الرّسائل النّاريّة الّتي وجّهها بعد صعوده إلى ملائكة الكنائس السّبع من خلال رؤيا يوحنّا اللاّهوتيّ. في هذه الرّسائل والّتي يطلب من الّذين أرسلت إليهم أن يتمسّكوا بالتّعليم الّذي عندهم إلى أن يجيء(١٩٥)، يظهر مقاومته وبغضه الواضحين للهرطقات الّتي تحاول تغيير هذا التّعليم، وخاصّة ذات الصّفة الإباحيّة مثل النّقولاّويّين. من هذه الرّسائل رسالته إلى ملاك كنيسة أفسس وفيها يؤنّبه على ترك محبّته الأولى طالباً منه بإنذار أن يتوب، إنّما يستدرك مظهراً ما يشفع له:

"ولكن عندك هذا أنّك تبغض أعمال النّقولاّويّين **الّتي أبغضها أنا ايضاً**"(١٩٦).

وعلى العكس من ملاك أفسس، فهو يأخذ على ملاك كنيسة برغامس أنّه يتساهل مع النّقولاّويّين، على الرّغم من مديحه له في أمور أخرى، طالباً منه التّوبة:

"هكذا عندك أنت أيضاً قوم متمسّكون بتعاليم النّقولاّويّين **الّذي أبغضه. فتب وإلاّ** فإنّي آتيك سريعاً وأحاربهم بسيف فمي"(١٩٧).

على مثال كنيسة برغامس، هناك ثناء على ملاك الكنيسة الّتي في ثياتيرا. لكن هناك توبيخ بشأن التّساهل مع المرأة ايزابل الّتي تعلّم مدّعية كذباً النبوّة:

---

(١٩١) مت ٧: ١٥–٢٠

(١٩٢) مت ٢٤: ١١ و ٢٣ – ٢٤؛ مر ١٣: ٢٢

(١٩٣) لو ٢١: ٣٣

(١٩٤) عبر ١٣: ٨

(١٩٥) رؤ ٢: ٢٥

(١٩٦) رؤ ٢: ٦

(١٩٧) رؤ ٢: ١٥

"لكن عندي عليك أنّك تسيب المرأة ايزابل الّتي تقول إنّها نبيّة حتّى تعلّم وتغوي عبيدي أن يزنوا ويأكلوا ما ذبح للأوثان . . . ها أنا ألقيها في فراش والّذين يزنون معها في ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم. وأولادها أقتلهم بالموت . . ."(١٩٨).

وفي الحقيقة هل كان ممكناً أن تتحقّق تلك الأعجوبة الكبرى فلا يتغيّر جوهريّاً إيمان كنيسة المسيح وحياتها خلال ألفين من السنين، لولا موقف آبائها الّذين جاهدوا بمعونة الثّالوث بثبات ومرارة حتّى الدّم، فحافظوا بأمانة على ما تسلّموه من الرّسل والرّبّ يسوع. ولذلك بقي موقفهم هو هو نفسه ضدّ كلّ بدعة وانحراف "أمساً واليوم وغداً".

تسليم الكنيسة اليوم ما بين العتاقة والجدّة:

تعتقد الأغلبيّة السّاحقة من المسيحيّين في أيّامنا هذه وتتصرّف، وكأنّ تسليم الكنيسة ليس حيّاً، وإن اختلفت طرق هذا الاعتقاد والتّعبير عنه.

فبالإضافة للّذين لا يؤمنون أساساً بوجود تسليم لا للكنيسة ولا للرّسل، هناك من يخلط ما بين التمسّك بالوديعة الصّالحة وما بين التمسّك بما هو قديم ظانّاً أنّ قيمة الأشياء هي في قدمها بحدّ ذاتها، فما هو قديم هو الصّحيح وما هو جديد هو، سَلَفاً، غير صالح، والقداسة هي حكر فقط على القدماء! لذلك وبما أنّ تقليد الكنيسة هو تسليم الرّسل والآباء القدّيسين القدماء الّذين ينتمون، في نظره، فقط إلى عالم الماضي، فالتّسليم قد توقّف حتماً مع توقّف وجود القدّيسين، وبالتّالي لم يعد ثمّة جدد تضاف إليه! كمثال على هذا الخلط اعتقاد البعض أنّ آباء الكنيسة قد وجدوا فقط في القرون الخمسة الأولى، أو ادّعاء البعض الآخر أنّ القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ هو آخر آباء الكنيسة الشّرقيّة. وفي الحقيقة أنّ الاثنين يجهلان أو يتجاهلان وجود آباء قدّيسين في كل العصور وحتّى يومنا هذا. من أمثال هؤلاء (ما بعد يوحنّا الدّمشقيّ): سمعان اللاّهوتيّ الحديث ونيقولاّوس كابّاسيلاس وغريغوريوس بالماس ويوحنّا كرونشتادت وثيوفانّس الحبيس ونيقوديموس الآثوسيّ ونكتاريوس المدن الخمس وسلوان الآثوسيّ ويوسف الهدوئيّ إلخ . . . كما أنّه كما يقول الأب جورج فلورفسكي: ["ما الكنيسة متحفاً للودائع الميتة أو جمعيّة للبحث العلميّ" لأنّ ودائعها حيّة (depositum juvenescens)

(١٩٨) رؤ ٢: ١٨ – ٢٣

على حدّ تعبير القدّيس إيريناوس. فإيمانها ليس من بقايا الماضي، بل هو "سيف الرّوح".[١٩٩]

على نقيض هذا الموقف ثمّة من يدعو إلى أن يدخل في حياة الكنيسة وتعليمها أي نتاج يصدر عن أيّ مسيحيّ – وحتّى غير مسيحيّ – عنده مواهب دنيويّة مرموقة. يكفي في نظرهم مثلاً أن يكون صاحب شهادات عالية أو كتب عديدة، أو معروفاً في الأوساط اللاّهوتيّة أو الثّقافيّة بأدبه أو فلسفته أو شعره أو فنّه، ولا يهمّ إن كان يعيش خارج إطار حياة الكنيسة وجهادها، أو كانت أفكاره أو نمط حياته تتعارض في الصّميم مع الإيمان المسيحيّ ومتطلّباته.

مبرّرات هذه الدّعوة، عادةً، هي وجوب التّوقّف عن الالتفات إلى الوراء والماضي، والنّظر إلى الأمام والمستقبل والكفّ عن التمسّك بما هو قديم. لأنّ الجديد بعامّة – في نظر أصحاب هذا الموقف – يعني التطوّر والانفتاح، بينما كلّ قديم – في نظرهم – هو التّخلّف والرّجعيّة والأصوليّة.

من وجهة نظر إلهيّة خلاصيّة، ماذا يهمّ لو كتب لاهوتيّ أو أديب أو مفكّر أو فيلسوف ألمعيّ في مواضيع مسيحيّة فأجاد ونال تقريظ نقّاد هذا العالم، لكنّ كتابه لا يحمل استقامة التّعليم الصّحيح، ولا يحفز قارئه نحو الإيمان والقداسة والحياة الأبديّة؟

وماذا يهمّ لو تطوّع فنّان كبير مشهور لأن يكتب خدمة ليتورجيّة، لكن ولأنّ مؤلّفها لم يعرف خبرة الصّلاة النّقيّة بالرّوح القدس، فهي مع تميّزها بجمال أدبيّ وموسيقيّ، لا تساعد مصلّيها على الصّلاة والتّخشّع والتّوبة؟

وماذا يهمّ لو كان السّيّد أو السّيّدة أو أحد القدّيسين موضوع لوحة فنّيّة لرسّام عظيم، لكنّها مع كونها ذروة في الإبداع والتّجديد لا تحمل المصلّي أمامها نحو المجد السّماويّ لمن صوّر عليها، ولا تنقله من المنظور إلى غير المنظور؟ لأنّ مبدع اللّوحة يجهل أصول التعابير الرّوحيّة لرسّامي الإيقونات، ولم يعش كما عاش أولئك، بروح الله، تسليم الكنيسة الحيّ في "الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع".

(١٩٩) الأب جورج فلورفسكي، الكتاب المقدّس والكنيسة والتّقليد، نقله إلى العربيّة الأب ميشال نجم، منشورات النّور ١٩٨٤، ص ١٢.

مشكلة الدّاعين لهذا الموقف إذن أنّهم يجهلون أنّ النّتاج الّذي يمكن اعتباره استمراراً لتسليم الكنيسة وحياتها، يتميّز في طبيعته – كما سبق وأشرنا – بصفتين أساسيّتين:

١"– هو دائماً في اتّفاق جوهريّ مع "التّعليم الصّحيح" المتسلّم عن الرّبّ يسوع، وإن سكب في طرق تعبير فائقة الجدّة، أو نقل بوسائل مبتكرة سابقة لعصرها.

٢"– هو ثمرة طبيعيّة لحياة أعضاء "كنيسة الله الحيّ"، وخاصّة الحاملين منهم لمواهبها الإلهيّة، الباذلين ذواتهم متحمّلين المشقّات "لأجل تكميل القدّيسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح"[٢٠٠]. ولذلك يحفظون الوديعة الصّالحة ويعبّرون عنها بالرّوح القدس السّاكن فيهم.

فما الكنيسة مجرّد مؤسّسة تحسن استخدام موظّفين أو متطوّعين في اختصاصات مختلفة، وليس تسليمها أي نتاج لمجرّد متفوّقين في العلم أو الفلسفة أو الأدب أو الفنّ. ما هو خطر في هذا الموقف أنّه قد يتحوّل إلى دعوة صريحة للتّخلّي عن تسليم الرّسل والآباء القدّيسين تحت حجّة انتمائهم إلى عالم الماضي، وبالتّالي للتّساهل والتّسيّب في أمور الإيمان، وتركها تحت رحمة الآراء الشّخصيّة المتضاربة الخاضعة لأهواء حكماء وفهماء هذا الدّهر. هكذا قد تفقد القدرة على التّمييز بين ما هو موافق "للتّعليم الصّحيح" المؤدّي إلى معرفة "الطّريق والحقّ والحياة"، وبين ما هو غير موافق. وعندها فهل يستبعد أن تتدرّج الأمور فيصبح عند البعض الانحرافُ عن الإيمان تجديداً، والبدعة إبداعاً، والإلحاد تقدّماً، والرّجوع بأشكال جديدة إلى الوثنيّة وممارساتها حداثة؟!

وبعد، فهل القضيّة مجرّد صراع ساذج بين متحمّسين للقديم أو للجديد أو للماضي أو للحاضر أو للمستقبل، وكأنّ كلاً من هذه – في عالمنا المؤقّت والمتحوّل باستمرار والّذي تتلاعب به الخطيئة ونتائجها – هو بحدّ ذاته حسن أو سيّء؟!

بالنّسبة لعالم ما فوق الزّمن الّذي دعينا لكي نعيشه وفي هذا الزّمن – والّذي يفترض أنّنا كمسيحيّين نؤمن به – تتغيّر مدلولات اصطلاحات عالمنا الزّمنيّ هذا. فما هو مثلاً الجديد الحقيقيّ بالنسبة لعالم الإعلان الإلهيّ؟:

(٢٠٠) أف ٤: ١١ – ١٢

أليس هو ما يعطيه "القديم الأيّام"[٢٠١] "الرّبّ الكائن والّذي كان والّذي يأتي القادر على كلّ شيء"[٢٠٢]، وعلى أن يصنع "كلّ شيء جديداً"[٢٠٣] "أمساً واليوم وإلى الأبد"[٢٠٤]؟ ومن يستطيع أن يعرف هذا الجديد إلاّ من "يخلع الإنسان العتيق مع أعماله ويلبس الجديد الّذي يتجدّد للمعرفة حسب صورة خالقه[٢٠٥]؟ أي من يتوب فيقترب من ملكوت السّموات[٢٠٦]؟

"من أجل ذلك كلّ كاتب متعلّم في ملكوت السّموات يشبه رجلاً ربَّ بيت يخرج من كنزه جدداً وعتقاء"[٢٠٧]. فهل عنى معطي الملكوت بالكاتب المتعلّم في ملكوت السّموات أيّ مسيحيّ – لا على التّعيين – تعلّم في مدارس وجامعات هذا العالم، أم الّذي تعلّم في ملكوت الله داخله[٢٠٨]، حيث يمكث فيه المعزّي الرّوح القدس[٢٠٩]، بعد أن اختطف الملكوت غصباً[٢١٠] بالإيمان والصّلاة وحفظ الوصايا وإنكار الذّات؟ ومن يستطيع النّظر إلى الأمام واستشراف ما هو جديد، إلاّ الّذي "ينسى ما هو وراء ويمتدّ إلى ما هو قدّام"، ساعياً "نحو الهدف لأجل جائزة دعوة الله العليا في المسيح يسوع"[٢١١]؟

المهمّ إذن، أنّ من يخرج من كنزه جدداً وعتقاء هو من السّاعين بإرادتهم وراء "دعوة الله العليا في المسيح يسوع" الّتي دعاهم إليها القدّوس كي يصيروا على مثاله في القداسة[٢١٢] والكمال[٢١٣]. لأنّهم يعرفون أنّ "إرادة الله قداستهم"[٢١٤] وأنّه بدون القداسة

---

(٢٠١) دا ٧: ١٣
(٢٠٢) رؤ ١: ٨
(٢٠٣) رؤ ٢١: ٥
(٢٠٤) عب ١٣: ٨
(٢٠٥) كول ٣: ٩ – ١٠
(٢٠٦) مت ٣: ٢ و ٤: ١٧
(٢٠٧) مت ١٣: ٥٢
(٢٠٨) لو ١٧: ٢٠
(٢٠٩) يو ١٤: ١٥ و ١٧ و ٢٠ و٢١ و ٢٣
(٢١٠) مت ١١: ١٢
(٢١١) فيل ٣: ١٣ – ١٤
(٢١٢) ١ بط ١: ١٥؛ لا ١١: ٤٤
(٢١٣) مت ٥: ٤٨
(٢١٤) ١ تس ٤: ٣

"لن يرى أحدٌ الرّب"[٢١٥] ولن يصبح ابناً له بالتّبنّي[٢١٦] ولا شريكاً له في طبيعته الإلهيّة أو في ملكوته[٢١٧]. من أجل هذه المواعيد تكرّسوا كي يطهّروا "ذواتهم من كلّ دنس الجسد والرّوح مكمّلين القداسة في خوف الله"[٢١٨].

هكذا، وبسبب هذا السّعيّ نحو القداسة، يمكن أن يصير الرّاعي أو المعلّم أو أيّ عضو حيّ في كنيسة الله الحامل لمواهبها الإلهيّة في أيّ زمان ومكان، كربّ بيت يخرج من كنزه جدداً وعتقاء، أي يعلّم بأسلوبه الخاصّ الجديد ما تسلّمه من عتقاء الرّسل والآباء القدّيسين، مساهماً في الوقت ذاته في إغناء تسليم الكنيسة كلّ يوم بجديد. ويتمّ ذلك إن كان من جهة ما هو جديد في طريقة خدمته وحياته نفسها، إذ "يضيء نورها قدّام النّاس فيروا أعماله الحسنة ويمجّدوا أباه الّذي في السّماوات"[٢١٩]. أو كان من جهّة ما يقدّمه، بمعونة روح الله، من كتابات أو تعابير جديدة عن إيمانه وجهاده، تضاف إلى تسليم الكنيسة الحيّ ملقية ضوءاً جديداً على الوديعة الصّالحة المتسلّمة عن الرّبّ يسوع. عندها في أمثاله يتحقّق قول القدّيس بولس: "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكلّ قد صار جديداً"[٢٢٠].

تسليم الكنيسة الواحد كمنطلق أساسيّ لتفسير الكتاب المقدّس:

١. الهدف الرّئيس من قراءة الكتاب المقدّس بحسب الكتاب المقدّس

قبل أن نفتّش عن الطّريقة الأفضل لتفسير الكتاب المقدّس يجدر بنا أوّلاً أن نسأل: لماذا نقرأ الكتاب المقدّس؟ ولأي هدف كتب أصلاً؟ وهل يجيب هو نفسه على هذا السّؤال؟ لا شكّ أنّ هناك أسباباً كثيرة مباشرة وغير مباشرة دفعت بكتّابه المختلفين زماناً وبيئة وثقافة على كتابته. لكنّنا نظنّ أنّ السّبب الأساس وراء كلّ هذه الأسباب هو ذاته ما قاله يوحنّا الحبيب بالنّسبة لآيات إنجيله: "وأمّا هذه فقد كتبت **لتؤمنوا أنّ يسوع هو**

(٢١٥) عب ١٢: ١٤
(٢١٦) أف ١: ٤ – ٥
(٢١٧) ٢ بط ١: ٣ – ١١
(٢١٨) ٢ كور ٧: ١
(٢١٩) مت ٥: ١٦
(٢٢٠) ٢ كور ٥: ١٧

المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه"[٢٢١]. ذلك لأنّ الحياة الأبدية أو ملكوت الله، بحسب الكتاب المقدّس، هو الهدف الّذي من أجله خلق الله العالم[٢٢٢]، وبذل ابنه الوحيد[٢٢٣]، وأرسل رسله للبشارة[٢٢٤]. ويتمّ الوصول إلى هذه الحياة عن طريق معرفة البشر للآب ولابنه يسوع[٢٢٥]. أمّا معرفة (أو رؤية أو شركة) الآب والابن والرّوح القدس فتحصل عن طريق الإيمان[٢٢٦]. وبالطّبع فالمقصود ليس الإيمان وحده بل "الإيمان العامل بالمحبّة"[٢٢٧] في "كنيسة الله الحيّ" وبقوّة أسراره الإلهيّة[٢٢٨].

وعلى مثال العهد الجديد، كانت هناك كذلك أسباب كثيرة مباشرة وغير مباشرة لكتابة أسفار العهد القديم. لكنّ الهدف الخفيّ الأبعد وراء تلك الأسباب كان هو أيضاً الإيمان بالكلمة ابن الله الّذي لم يكن حينها متجسّداً، وكان "يكلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة"[٢٢٩]. ولذلك قال عن نفسه بعد تجسّده عندما سأله اليهود من أنت: "أنا من البدء ما أكلّمكم أيضاً به"[٢٣٠]، وقال عنه بولس الرّسول: "فإنّي لست أريد أيّها الإخوة أن تجهلوا أنّ آباءنا جميعهم كانوا تحت السّحابة وجميعهم اجتازوا في البحر وجميعهم اعتمدوا لموسى في السّحابة وفي البحر وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحيّاً وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحيّاً. **لأنّهم كانوا يشربون من صخرة روحيّة تابعتهم والصّخرة كانت المسيح**"[٢٣١].

---

(٢٢١) يو ٢٠: ٣١

(٢٢٢) تك ٢: ٩ و ٣: ٢٢؛ رؤ ٢١: ١ – ٦ و ٢٢: ١ – ٥؛ مت ٢٥: ٣٤ و ٤٦ وأف ١: ٤ – ١٠ و ٢ بط ١: ٣ – ٤ و ١٠ – ١١؛ دا ٧: ١٣ – ١٤؛ اش ٥١: ٦

(٢٢٣) يو ٣: ١٦؛ مز ٤٠: ٦ – ٨

(٢٢٤) مت ١٠: ٧ وأش ٥٢: ٧ – ١٠

(٢٢٥) "وهذه هي الحياة الأبديّة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ وحدك ويسوع المسيح الّذي أرسلته" (يو ١٧: ٣).

(٢٢٦) يو ٣: ١٤ – ١٨ و ٣٦ و ١١: ٢٥ إلخ... مت ١٦: ١٥ – ١٧ وأع ١٦: ٣١

(٢٢٧) غل ٥: ٦

(٢٢٨) يو ٣: ٥ وتيط ٣: ٤ – ٦ و ٢ كور ١: ٢١ ويو ٦: ٥١ – ٥٨ إلخ...

(٢٢٩) عب ١: ١

(٢٣٠) يو ٨: ٢٥

(٢٣١) ١ كور ١٠: ١ – ٤

ولأنّ يهوه الكلمة محور العهد القديم الّذي كان يظهر للبطاركة والأنبياء هو نفسه يسوع (يهوشع أي يهوه يخلّص) محور العهد الجديد ومخلّصه[٢٣٢]؛ لذلك كان من البديهيّ أن يتكلّم عنه جميع الأنبياء وأن يهيّؤا للإيمان بمن أظهره العهد القديم وحده المخلّص[٢٣٣] والفادي[٢٣٤] ومعطي الملكوت والحياة لليهود ولجميع الأمم[٢٣٥].

هكذا كان إذن وراء تلك الاختلافات الكثيرة في نوعيّة وأسلوب وظروف كتابة أسفار الكتاب المقدّس في عهديه على مدى ما يزيد عن ألف وخمسمائة عام، روح واحد يقود كتّابه العديدين نحو هدف واحد. إذ جعل الرّبّ "شريعته في داخلهم وكتبها على قلوبهم"[٢٣٦] فكان "الجميع متعلّمين من الله"[٢٣٧]، "وتلاميذ الرّبّ"[٢٣٨]. "لأنّه لم تأت نبوّة قط بمشيئة إنسان بل تكلّم أناس الله القدّيسون مسوقين من الرّوح القدس"[٢٣٩]. وبذا استطاعوا أن يشاركوا جميعاً في التّهيئة لقبول "الحكمة المكتومة الّتي سبق الله فعيّنها قبل الدّهور لمجدنا"[٢٤٠].

لذلك عندما ظهرت "الكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السّرّ الّذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزليّة"[٢٤١] ظهر معها الهدف الأساس من الكرازة وبالتّالي من قراءة أسفار العهدين الجديد والقديم، وهو: قبول "برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كلّ وعلى كلّ الّذين يؤمنون... متبرّرين مجّاناً بنعمته بالفداء الّذي بيسوع المسيح"[٢٤٢]. على هذا النّحو فكلّ تفسير للكتاب المقدّس لا يقود باتّجاه هذا الهدف فهو، بحسب الكتاب المقدّس نفسه، مجرّد "حكمة من هذا الدّهر ومن عظماء هذا الدّهر الّذين يُبطَلون"[٢٤٣].

(٢٣٢) مت ١: ٢١ – ٢٢؛ لو ١: ٣١ – ٣٣ و ٢: ١٠ – ١١؛ أع ٤: ١٢؛ فيل ٢: ١٠
(٢٣٣) أش ٤٣: ١١ و ٤٥: ٢١ – ٢٢ إلخ؛ مز ٦٨: ٢٠؛ حز ٣٤: ١٢؛ صف ٣: ١٧...
(٢٣٤) أش ٤٣: ١٤ و ٤٤: ٦ و ٢٤ و ٥٣: ٤ – ٦ و ٨ و ١١ – ١٢ و ٥٩: ٢٠؛ مز ٤٩: ١٥
(٢٣٥) أش ٩: ٦ – ٧ و ٦٠: ١؛ دا ٧: ١٣ – ١٤؛ حج ٢: ٥ – ٩
(٢٣٦) ار ٣١: ٣٣
(٢٣٧) يو ٦: ٤٥
(٢٣٨) أش ٥٤: ١٣
(٢٣٩) ٢ بط ١: ٢١
(٢٤٠) ١ كور ٢: ٧
(٢٤١) رو ١٦: ٢٥
(٢٤٢) رو ٣: ٢١ – ٢٤
(٢٤٣) ١ كور ٢: ٦

٢. هل يحتاج الكتاب المقدّس إلى تفسير؟

من ميّزات الكتاب المقدّس – الّذي صار كما أراده الله بشارة دائمة وشبكة مطروحة أمام قرّائه كي يصطادهم نحو الحياة الأبديّة – أنّ الّذي عنده عينان كي يقرأ وأذنان كي يسمع وقلب نقيّ كي يرتكض، أن يجد نفسه وهو يقرأ بشغف الكتاب المقدّس، منجذباً بمعونة الرّوح القدس كي يؤمن. ولكن هل الكلّ عندهم هذا الاستعداد؟ وحتّى الّذي عنده إيّاه – والّذي تتفاوت نسبته عادة بين البشر – ألا يجد نفسه أحياناً كثيرة أمام مقاطع عسرة الفهم من الكتاب المقدّس ويقول في نفسه – كما قال الخصيّ الحبشيّ لفيلبّس الشّماس عندما سمعه يقرأ النّبيّ أشعياء وسأله ألعلّك تفهم ما أنت تقرأ – "كيف يمكنني إن لم يرشدني أحد؟"(٢٤٤).

فكيف يتصرّف حينها قارئ الكتاب المقدّس، وخاصّة أمام المقاطع الكثيرة الّتي فحواها – بحسب تعبير بولس الرّسول: "أمور الله (الّتي) لا يعرفها أحد إلاّ روح الله؟"(٢٤٥). هل يفسّرها بحسب رأيه الخاصّ متّكلاً على "حكمته الإنسانيّة" وعقله المظلم بالأهواء؟ أم يسترشد بمن يظنّ أنّهم علماء في الكتاب المقدّس وهم قد يكونون في الواقع غير عارفين "بالتّعليم الصّحيح"، وغير عائشين في "كنيسة الله الحيّ" "الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع؟"، وبالتّالي ألا ينطبق على كلتا الحالتين كلام هامة الرّسل بطرس، وهو يتحدّث عمّا كان يفعله البعض بخصوص رسائل القدّيس بولس، وعن النّتيجة الّتي كانوا يصلون إليها؟: "كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له كما في الرّسائل كلّها أيضاً متكلّماً فيها عن هذه الأمور **الّتي فيها أشياء عسرة الفهم يحرّفها غير العلماء وغير الثّابتين كباقي الكتب أيضاً لهلاك أنفسهم**"(٢٤٦).

ما هو جدير بالذّكر أنّ ما ترجم إلى العربيّة في هذا النّصّ بـ "غير العلماء" هو ليس دقيقاً. لأنّ الأصل اليونانيّ(ἀμαθής)يعني: جاهل، غبي، غير متعلّم. وبالطّبع فلا يقصد القدّيس بطرس أنّ الّذين يحرّفون الكتاب هم "غير العلماء"، أي الّذين لم يتيسّر لهم القيام أو الاطّلاع على دراسات أو أبحاث في الكتاب المقدّس، أو الجهلاء أو غير المتعلّمين

(٢٤٤) أع ٨: ٣١
(٢٤٥) ١ كور ٢: ١١
(٢٤٦) ٢ بط ٣: ١٥ – ١٦

دنيويّاً، بل هم: الجاهلين أو غير العارفين "الأشياء الموهوبة لنا من الله" الّتي "يعلّمها الرّوح القدس"[٢٤٧]، أو غير العارفين "أسرار ملكوت السّماوات"[٢٤٨]، أو غير "المتعلّمين (μαθητευθείς) في ملكوت السّموات"[٢٤٩]. يؤكّد هذا المعنى النّعت المرادف وهو غير الثّابتين. إذ ماذا يمكن أن يعني إلاّ غير الثّابتين في الإيمان والمحبّة وحفظ الوصايا كأغصان في الكرمة الّتي هي المسيح[٢٥٠]؟ ألم يصلّي الرّسول بولس كي "يحلّ المسيح بالإيمان في قلوب أهل أفسس وهم متأصّلون ومتأسّسون في المحبّة حتّى يستطيعوا أن يدركوا مع جميع القدّيسين ما هو العرض والطّول والعمق والعلوّ"[٢٥١]؟

هكذا فالصّعوبة الرّئيسة في فهم معاني أسفار الكتاب المقدّس لا سيّما العهد الجديد منها، لا ترجع فقط – كما يظنّ البعض – إلى المشاكل اللّغويّة والتّاريخيّة المتعلّقة بالنّصّ المقروء وشخصيّة كاتبه وبيئته وظروف كتابته إلخ... وإنّما بالدّرجة الأولى إلى عظمة وسموّ الحقائق الإلهيّة الّتي تعجز لغة البشر القاصرة أن تعبّر عنها. منها على سبيل المثال أسرار: الثّالوث القدّوس، ملكوت الله، تجسّد ابن الله، ولادته بالجسد من عذراء، صليبه، موته وقيامته وصعوده إلى السّماء بالجسد، تمجيده ساعة موته، نزوله إلى الجحيم، إرساله الرّوح القدس في اليوم الخمسين، تأسيسه الكنيسة وتسليمه أسرارها الإلهيّة، خلاص وتأليه المؤمنين بالمسيح من خلال شركتهم كأعضاء في جسده وفي هذه الأسرار إلخ... فعلاً كما يهتف بولس الرّسول: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. لأنّ من عرف فكر الرّبّ أو من صار له مشيراً"[٢٥٢].

فإذا كان العهد الجديد كلّه هو بشارة وإعلان عن هذه الأسرار الإلهيّة الفائقة الإدراك، أفلا تحتاج نصوصه إلى مزيد من التّوضيح والتّفسير الصّحيح؟ وبالأحرى إلى تعليم وإرشاد وتوجيه لقرّائه، في إطار روحيّ وكنسيّ مناسب، يساعدهم على تقوية

(٢٤٧) ١ كور ٢: ١٢ – ١٣
(٢٤٨) مت ١٣: ١١
(٢٤٩) مت ١٣: ٥٢
(٢٥٠) يو ١٥: ١ – ١٠
(٢٥١) أف ٣: ١٧ – ١٨
(٢٥٢) رو ١١: ٣٣ – ٣٤

إيمانهم والدّخول إلى عمق هذه الأسرار وبالتّالي إلى تحقيق المواعيد الّتي تحملها في حياتهم. ألم يكن هذا ما فعله الرّبّ يسوع مع تلاميذه حين كان معهم على الأرض؟ وما فعلوه هم أنفسهم في إطار الكنائس الّتي بشّروها؟ وما تسلّمته منهم جميع الكنائس كي تفعله في مختلف الأمكنة والأزمنة؟

ولتأكيد تعالي الحقائق الإلهيّة، واستحالة معرفتها وقبولها مباشرة من قبل أي شخص يقرؤها نعطي مثلين من الكتاب المقدّس نفسه:

١"– لم يستطع نيقوديموس الّذي أتى يسوع ليلاً أن يقبل من الوهلة الأولى لا سرّ الولادة من فوق ولا سرّ ملكوت الله: "الحقّ الحقّ أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله"(٢٥٣)، إذ ظنّه يتحدّث عن ولادة جسديّة ثانية للإنسان وهو شيخ. وعندما حدّثه عن الولادة من الماء والرّوح، "قال له كيف يمكن أن يكون هذا"(٢٥٤)؟

نيقوديموس ذاته سوف يلازم يسوع ولو عن بعد. وسيأتي وقت يتجرّأ فيه وأكثر من تلاميذه أنفسهم، فيأخذ مع يوسف الّذي من الرّامة جسد يسوع ويكفّنه(٢٥٥)، لأنّه مثله: "كان هو أيضاً ينتظر ملكوت الله"(٢٥٦).

٢"– لم يستطع اليهود أن يقبلوا الحقيقة الّتي أعلنها الرّبّ يسوع عن نفسه أنّه "الخبز النّازل من السّماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت"(٢٥٧)، لذلك خاصم بعضهم بعضاً قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل(٢٥٨). لكن لم يستطع قبولها ولا حتّى كثيرون من تلاميذه في البداية: "فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا أنّ هذا الكلام صعب. من يقدر أن يسمعه". أكثر من ذلك: "من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء و لم يعودوا يمشون معه"(٢٥٩).

---

(٢٥٣) يو ٣: ٣

(٢٥٤) يو ٣: ٣ – ٩

(٢٥٥) يو ١٩: ٣٩ – ٤٠

(٢٥٦) لو ٢٣: ٥١

(٢٥٧) يو ٦: ٤٨ – ٥١

(٢٥٨) يو ٦: ٥٢

(٢٥٩) يو ٦: ٦٦

أمّا بخصوص العهد القديم، فإذا نظرنا إليه كما نظر إليه الرّبّ يسوع وتلاميذه، أي كتهيئة لمجيء المخلّص المتجسّد، فهذا يعني أنّ بذور العهد الجديد كانت مطمورة في أسفاره. وبالتّالي فالغموض في العهد القديم هو أكبر بكثير بسبب الأسرار الّتي لا حصر لها والمخبّأة فيه، والمحتاجة إلى تفسير على ضوء العهد الجديد. ألا يشهد العهد القديم نفسه لتعالي أسرار الله على أفكار البشر: "لأنّ أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الرّبّ. لأنّه كما علت السّموات عن الأرض هكذا عَلَت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم"(٢٦٠).

من هذه الأسرار مثلاً هناك المئات من النّبوءات الّتي ترد في اغلب أسفار العهد القديم وتنطبق على المسيح. وهناك الرّموز الّتي تشير إلى المسيح والعذراء والكنيسة، إن كان في خيمة العهد ومحتوياتها (كالتّابوت والمائدة ومذبح البخور وقسط المنّ وعصا هرون والذّبائح بأنواعها...)، وإن كان في حوادث أو رؤى ذات مغزى مثل السلّم الّذي رآه يعقوب، أو عبور البحر الأحمر، أو الحيّة النّحاسيّة، أو الصّخرة، أو الباب المتّجه إلى المشرق والّذي رآه حزقيال مغلقاً، إلخ... وإن كان وحتّى في شخصيّات بعض قدّيسي العهد القديم مثل ملكيصادق واسحق ويوسف إلخ...

هذه القضايا الإلهيّة بالذّات الّتي تحدّث عنها الكتاب المقدّس، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، والمتعالية على القبول والإدراك، تؤكّد الحاجة الحقيقيّة إلى التّفاسير الصّحيحة الّتي تلقي مزيداً من الضّوء عليها، وتساعد على تثبيت قرّاء الكتاب المقدّس في الإيمان، وتنير مسيرتهم نحو معرفة الله وحياته الأبديّة.

٣. الرّبّ يسوع هو المفسّر الأوّل والأخير للكتاب المقدّس

وهنا نسأل من يستطيع أن يعطي التّفاسير الصّحيحة لمن يسمّيها بولس الرّسول "أمور الله" إلاّ الّذي يعرفها؟ ومن الّذي يعرفها إلاّ "روح الله"(٢٦١) أو الآب أو الابن(٢٦٢). أمّا البشر فلا يمكن لأحد منهم أن يعرف أمور الله إلاّ "من أراد الابن أن يعلن له"(٢٦٣)، من

(٢٦٠) أش ٥٥: ٨ – ٩
(٢٦١) ١ كور ٢: ١١
(٢٦٢) مت ١١: ٢٧
(٢٦٣) مت ١١: ٢٧

"الآب الّذي في السّموات"(٢٦٤)، "بالرّوح القدس"(٢٦٥).

بديهيّ إذن أنّ الّذي يعرف الحقائق الإلهيّة هو الثّالوث القدّوس، أي الله الّذي "بعدما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلّمنا في هذه الأيّام الأخيرة في ابنه"(٢٦٦). لأنّ "الابن الوحيد الّذي هو في حضن الآب هو خبّر"(٢٦٧). لكنّ الله لم يكلّمنا في ابنه "الكلمة"، فقط في العهد الجديد بل وفي القديم أيضاً: "فقال لهم (لليهود) يسوع: أنا من البدء ما أكلّمكم أيضاً به"(٢٦٨). هكذا فالّذي كلّم وخبّر في كلا العهدين، والّذي أوعز للأنبياء وللرّسل أن يتكلّموا أو أن يكتبوا، هو وحده يعرف معاني كلماته، ولذلك هو وحده المفسّر لها:

"وجميع الّذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: **إنّه اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم**"(٢٦٩).

"وأخذ الاثني عشر وقال لهم ها نحن صاعدون إلى أورشليم **وسيتمّ كلّ ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان**. لأنّه يسلّم إلى الأمم ويستهزأ به ويشتم ويُتفَل عليه. ويجلدونه ويقتلونه وفي اليوم الثّالث يقوم. وأمّا هم فلم يفهموا من ذلك شيئاً"(٢٧٠).

"**ثمّ ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسّر لهما الأمور المختصّة به في جميع الكتب**"(٢٧١).

"**فتّشوا الكتب لأنّكم تظنّون أنّ لكم فيها حياة أبديّة، وهي الّتي تشهد لي**"(٢٧٢).

"وقال لهم هذا هو الكلام الّذي كلّمتكم به وأنا بعد معكم أنّه **لا بدّ أن يتمّ جميع ما**

---

(٢٦٤) مت ١٦: ١٧

(٢٦٥) ١ كور ١٢: ٣

(٢٦٦) عب ١: ١

(٢٦٧) يو ١: ١٨

(٢٦٨) يو ٨: ٢٥

(٢٦٩) لو ٤: ١٦ – ٢١، اش ٦١: ١

(٢٧٠) لو ١٨: ٣١ – ٣٤

(٢٧١) لو ٢٤: ٢٧

(٢٧٢) يو ٥: ٣٩ و ٤٦

هو مكتوب عنّي في ناموس موسى والأنبياء والمزامير. حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب"[٢٧٣].

"... وأمّا على انفراد فكان **يفسّر لتلاميذه كلّ شيء**"[٢٧٤].

فكيف يتجرّأ إذن، من لا زالوا يعتبرون أنفسهم مسيحيّين (كما عند بعض الشّيع في الغرب) أن يفسّروا العهد القديم كما يفسّره اليهود – وكأنّ العهد الجديد ليس موجوداً – ضاربين عرض الحائط بكلّ مواعيد المسيح وسماويّة ملكوته، وجاعلين كلّ همّهم أن يبرّروا للصّهاينة الملكوت الأرضي الّذي يسعون إليه، والّذي من أجله سبق أجدادهم وصلبوا المسيح[٢٧٥]؟

وعلى النّقيض من هؤلاء كيف يتجرّأ من يدّعون إيمانهم بالعهد الجديد أن يرفضوا العهد القديم؟ والعهد الجديد نفسه يُظهر قبول ربّ العهد الجديد لجميع كتب العهد القديم من خلال تفسيره لها وفتح أذهان تلاميذه كي يفهموها، وتأكيده أنّه لم يأت لينقضها بل ليكّملها[٢٧٦]، وأنّ مجيئه وعمله كانا إتماماً لنبوءاتها[٢٧٧].

وكيف يتجرّأ مسيحيّون آخرون أن يفسّروا "الأمور المختصّة بالمسيح في جميع الكتب" – ولا سيّما ما هو مكتوب عنه في الأنبياء – فقط في إطار الحوادث التّاريخيّة البشريّة الّتي عاصرتها، نازعين عنها كلّ ما هو نبويّ وإلهيّ يشير إلى المسيح؟ أليسوا بهذا يرفضون تفسيرات المسيح ويجعلونه كاذباً لأنّه قال: "إنّه **لا بدّ أن يتمّ جميع ما هو مكتوب عنّي في ناموس موسى والأنبياء والمزامير**"، كما يبرهنوا بوضوح أنّه لم "ينفتح ذهنهم ليفهموا الكتب"؟!

٤. تلاميذ الرّبّ يسوع كمفسّرين للكتاب المقدّس

مِنَ المسيح المعلّم، "المذخّر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم"[٢٧٨]، تعلّم تلاميذه أن

---

(٢٧٣) لو ٢٤: ٤٤ – ٤٥

(٢٧٤) مر ٤: ٣٣ – ٣٤

(٢٧٥) يو ١١: ٤٧ – ٥٠، ٥٣

(٢٧٦) مت ٥: ١٧؛ مر ١٠: ١٩ إلخ...

(٢٧٧) لو ٤: ١٦ – ٢١ قارن أش ٦١: ١؛ لو ١٨: ٣١ – ٣٢ إلخ...

(٢٧٨) كول ٢: ٣

يغوصوا إلى أعماق معاني النّبوءات والمخبآت والرّموز والظّلال في أسفار العهد القديم، المتمحورة حول المسيح المخلّص الآتي، وأن يطابقوها على مسيحهم نفسه. أمّا هو – فكما رأينا أعلاه – كان كثيراً ما يشير إلى ما هو مكتوب(٢٧٩)، وكان يؤكّد باستمرار أنّه "سيتمّ كلّ ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان"، كما كان يتولّى تفسير "الأمور المختصّة به في جميع الكتب".

فمن كان يستطيع إذن، بعد صعود السّيّد، أن يفسّر كتب العهد القديم أفضل من رسله وتلاميذه؟ وأليسوا هم من كانوا يشرحون معانيها لليهود ويقنعوهم "من ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع من الصّباح إلى المساء"(٢٨٠)، وأليسوا هم من ردّدوا بطرق مختلفة في كتب العهد الجديد: "وهذا كلّه كان لكي يتمّ ما قيل من الرّبّ بالنّبيّ القائل"(٢٨١).

فإن كانت عظيمة إلى هذا المقدار معرفة تلاميذ الرّبّ لمعاني كتب العهد القديم، فماذا نقول عن معرفتهم لمعاني أسفار العهد الجديد وهم أنفسهم الّذين كتبوها؟ وألم يبشّروا بها فماً لفم بتوسّع وتفصيل مراراً وتكراراً في أمكنة وأزمنة مختلفة وبأساليب متنوّعة؟ وقبل ذلك ألم يكن أغلبهم شهوداً مباشرين للأعمال الإلهيّة الّتي كان يقوم بها الكلمة المتجسّد وآذاناً صاغية للأقوال الّتي كان يتفوّه بها؟ وألم يكونوا هم أنفسهم من كانوا يسألونه عمّا كان يتعذّر عليهم قبوله وفهمه؟(٢٨٢). لكن بالمقابل ألم يكن هو بذاته من كان يفسّرها لهم مقرّباً إيّاها لأذهانهم قبل وبعد القيامة؟(٢٨٣).

ما هو أهمّ من كلّ هذا أنّه أعطي لهم أن يتعرّفوا على "أمور الله" من خلال معرفتهم المباشرة لمعلّمهم الإلهيّ لا كابن للإنسان فحسب بل وكابن للّه الحيّ(٢٨٤)، وأن يروا "مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقّاً"(٢٨٥).

(٢٧٩) مر ٧: ٦ و ٩: ١٢ – ١٣ و ١١: ١٧ و ١٢: ١٠ إلخ...
(٢٨٠) أع ٢٨: ٢٣ و ٢٦: ٢٢
(٢٨١) مت ١: ٢٢ و ٢: ١٥، ١٧، ٢٣ و ٣: ٣ إلخ...
(٢٨٢) مت ١٣: ١٠، ٣٦ و ٢٤: ٣؛ مر ٤: ١٠ و ٩: ٢٨، يو ١٤: ٥ ...
(٢٨٣) مت ١٣: ١١ – ١٥، ٣٧ و ٢٤: ٤ – ٥٠، مر ٤: ١١ – ٢٠؛ يو ١٤: ٦ – ٧؛ أع ١: ٣ إلخ...
(٢٨٤) مت ١٤: ٣٣ و ١٦: ١٦ – ١٧...
(٢٨٥) يو ١: ١٤

على هذا النّحو كان الابن المتجسّد بذاته، طيلة بقائه مع تلاميذه، يكشف لهم بالتّدريج – وبمقدار ما كانوا يستطيعون تحمّله – أسرار الأمور المختصّة بالله وملكوته وخلاصه، كي يستطيعوا فيما بعد أن يعلّموها ويفسّروها. وما بقي خافياً عليهم كان يكشفه لهم بروح الحقّ الّذي امتلأوا به في اليوم الخمسين(٢٨٦). إذ كان "المعزّي الرّوح القدس – الّذي أرسله الآب باسمه – يعلّمهم كلّ شيء ويذكّرهم بكلّ ما قاله لهم"(٢٨٧).

كلّ هذا يعني أنّ رسل الرّبّ وتلاميذه لم يكونوا مجرّد ناقلين حرفيّين لما رأوا أو سمعوا للمسيح من أفعال أو أقوال أو أمثال أو تفاسير لكتب العهد القديم. كانوا أكثر من ذلك بكثير. كانوا جميعاً – إن كان في بشارتهم وتعليمهم الشّفهيّين أو في كتابات البعض منهم – كما يعبّر الرّسول بولس عن نفسه: "ونحن لم نأخذ روح العالم بل الرّوح الّذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله الّتي نتكلّم بها أيضاً لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانيّة بل بما يعلّمه الرّوح القدس قارنين الرّوحيّات بالرّوحيّات... لأنّه من عرف فكر (ذهن) الرّبّ فيعلّمه. وأمّا نحن فلنا فكر (ذهن) المسيح"(٢٨٨).

يظهر هذا بوضوح من خلال كتابات من كتبوا منهم، حيث نجدهم انطلاقاً من فكر (ذهن) المسيح الّذي لهم، ومن تعليم الرّوح القدس الماكث فيهم، يفسّرون بجرأة وحرّيّة الكثير من تصرّفات يسوع وأقواله، ويلقون الضّوء على مواقف معاصريه(٢٩٠)، فضلاً عن أنّهم كانوا يتصرّفون هم أنفسهم في بشارتهم وتعليمهم وقيادتهم للكنيسة باسم يسوع وبروح الله، كمن له سلطان(٢٩١).

هذا بالإضافة إلى أنّهم كانوا – كما في رسائلهم على سبيل المثال – يجيبون على مختلف الأسئلة والمواقف الحياتيّة لأعضاء الكنائس، ويلقون الأضواء على القضايا

(٢٨٦) أع ٢: ١ – ٤

(٢٨٧) يو ١٤: ٢٦

(٢٨٨) ١ كور ٢: ١٢ – ١٦

(٢٨٩) "فأمّا الرّبّ فهو الرّوح وحيث روح الرّبّ هناك حرّيّة" (٢ كور ٣: ١٧).

(٢٩٠) منها على سبيل المثال لا الحصر: يو ٧: ٣٩، ١١: ٥١ – ٥٢، ١٢: ٣٣ و ٣٧ – ٤٣ إلخ...

(٢٩١) مثلاً أع ١: ١٥ – ٢٦، ٢: ١٤ – ٤٢،...، ٥: ١ – ١١،...، أع ١٣: ٥ – ١٢، ١ كور ٥: ١ – ٥ إلخ...

الإيمانيّة الشّائكة. وكأنّهم بهذا يقومون بتفسير البشارة المسيحيّة وشرح مختلف جوانبها ومفاعيلها في حياة المؤمنين، وعلاقتها بالمجتمع الّذي كانوا يعيشون فيه.

أمّا من جهة أسفار العهد القديم، فبالإضافة إلى أنّهم كانوا على مثال معلّمهم يفسّرون النبوّات المختصّة به فيها – كما أشرنا أعلاه، إن كان من خلال بشارتهم الشّفهيّة أو المكتوبة – كانوا يرون في كثير من أحداث وشخصيّات العهد القديم تصاوير مسبقة وتطلّعات رمزيّة إلى المسيح والكنيسة. وبهذا كانوا يتابعون وضع الأساس لما سمّي فيما بعد بطريقة التّفسير التّيبولوجيّ والرّمزيّ. فعلى سبيل المثال لا الحصر يجد بولس الرّسول في عبور العبرانيّين للبحر الأحمر مثالاً للمعموديّة، وفي المنّ طعاماً روحيّاً، وفي الصّخرة الّتي شربوا منها في البريّة مثالاً للمسيح[٢٩٢]. ثمّ يضيف: "وهذه الأمور حدثت مثالاً (typos ,τύπος) لنا".

وعلى ذكر التّفسير الرّمزيّ، فمن نافل القول إنّ الرّموز في الكتاب المقدّس بعهديه هي كثيرة جدّاً. نكتفي بالإشارة إلى شروحات الرّسالة إلى العبرانيّين عن خيمة الإجتماع ومحتوياتها وذبائحها وكهنوت العهد القديم، باعتبارها مثالاً للمسيح وذبيحته وكهنوته. كما نلفت النّظر إلى أسفار مثل حزقيال ودانيال ونشيد الأنشاد إلخ... المليئة بالرّموز والمحتاجة إلى تفسير. وبالطّبع فلا أحد يشكّ أنّ الرّسل أثناء تعليمهم للكنائس كانوا يلقون الأضواء على هذه الرّموز مقدّمين التّفاسير الصّحيحة لها، ومظهرين العلاقة الوثيقة الّتي تربط ما بين عهدي الكتاب المقدّس.

بناءً على ما تقدّم، يمكننا القول إنّ الرّسل كونهم تلاميذ الرّبّ المباشرين وشهوده، الممتلئين من الرّوح القدس والعارفين – على قدر ما يستطيع البشر أن يعرفوا – بأمور الله وأسرار ملكوته وخفايا معاني كلامه، هم المفسّرون بامتياز لنصوص الكتاب المقدّس في كلا عهديه. فإن كانوا هم أنفسهم الّذين بشّروا بكلمة الرّبّ شفاهاً أم كتابة، أفلا تكون بشارتهم الشّفهيّة – أي تسليمهم الشّفهيّ – هي التّفسير الأفضل لبشارتهم المكتوبة؟ على اعتبار أنّها الحاملة للكثير الكثير ممّا لم يكتب[٢٩٣]، والّذي كان مفضّلاً

(٢٩٢) ١ كور ١٠: ١ – ٦

(٢٩٣) يو ٢٠: ٣٠ و ٢١: ٢٥؛ ٢ تس ٢: ١٥ إلخ...

حينها لأسباب مختلفة أن ينقل شفاهاً[٢٩٤]. وأين يمكننا أن نجد تسليم الرّسل الشّفهيّ إلاّ عند الكنائس الّتي تسلّمته منهم، وقبلته ولا تزال تقوم فيه، وبه أيضاً تخلص؟[٢٩٥] أي الّتي بنت على أساسه إيمانها وحياتها وبالتّالي معرفتها الحقيقيّة لمعاني الكتاب المقدّس.

من هنا يمكننا أن نفهم أكثر سبب الاهتمام الكبير لآباء الكنيسة الأوّلين في أن يتتبّعوا ويسجّلوا كلّ ما نطق به الرّسل وسلّموه. كمثال على هذا الاهتمام نعطي ما كتبه بابياس أسقف هيرابوليس (نحو ٦٠ – ١٣٠) في مقدّمة كتابه: "تفسير أقوال الرّبّ"، يقول "ولكنّني لا أتردّد أيضاً عن أن أضع أمامكم مع تفسيري كلّ ما تعلّمته بحرص من الشّيوخ(*) وكلّ ما أتذكّره بحرص، ضامناً صحّته. لأنّني لم ألتذّ – كالكثيرين – بمن يتكلّمون كثيراً، بل بمن يعلّمون الحقّ. لم ألتذّ بمن يقدّمون وصايا غريبة، بل بمن يقدّمون وصايا الرّبّ للإيمان الصّادر من الحقّ نفسه. وكلّما أتى أحد ممّن كان يتبع الشّيوخ (الّذين رأوا الرّسل) سألته عن أقوالهم، عمّا قاله اندراوس أو بطرس، عمّا قاله فيلبّس أو توما أو يعقوب أو يوحنّا أو متّى أو أي واحد آخر من تلاميذ الرّبّ... لأنّني لا أعتقد أنّ ما نحصل عليه من الكتب يفيدني بقدر ما يصل إليّ من الصّوت الحيّ الدّائم"[٢٩٦].

٥. الآباء القدّيسون كمفسّرين للكتاب المقدّس

على نمط تلاميذ الرّبّ الّذين تعلّموا من "المعلّم" يسوع معرفة المعاني الحقيقيّة للكتب المقدّسة وتفسيرها، تعلّم تلاميذهم منهم هذه المعرفة – وهم الّذين صاروا رعاة ومعلّمين وآباء للكنائس – فأودعوها بدورهم إلى تلاميذهم "بالنّعمة الّتي في المسيح يسوع":

"فتقوّ أنت يا ابني بالنّعمة الّتي في المسيح يسوع. وما سمعته منّي بشهود كثيرين أودعْه أناساً أمناء يكونون أكفّاء أن يعلّموا آخرين أيضاً"[٢٩٧].

وفي الواقع إنّ ما سمعه تلاميذ الرّسل منهم، هو بالذّات ما سمعوه هم من معلّمهم وسيّدهم. وهو بالذّات ما بشّروا به وسلّموه لأعضاء الكنائس. وهو بالذّات الحكمة

(٢٩٤) رو ١٠: ١٣ – ١٧؛ ٢ يو ١٢ و ٣ يو ١٣ و ١ كور ١١: ٣٤ إلخ...

(٢٩٥) ١ كور ١٥: ١ – ٢؛ ١ تس ٢: ١٣

(*) ويقصد بهم تلاميذ الرّسل المباشرين الّذين رأوهم، وهم في الوقت نفسه آباء الكنيسة ومعلّموها بعدهم.

(٢٩٦) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ك ٣، ف ٣٩، ٣ – ٤.

(٢٩٧) ٢ تيم ٢: ١ – ٢

الّتي كانت مكتومة في "ناموس موسى والأنبياء والمزامير"، وأعلنت في بشارة وكتب العهد الجديد.

من هنا يمكننا القول إنّه من خلال تسليم الرّسل تسلّمت الكنائس جيلاً بعد جيل المعرفة الحقيقيّة في تفسير الكتب المقدّسة قديمها وجديدها، والّتي ترجع في أصولها إلى تفسير الرّبّ يسوع نفسه. في هذا الصّدد يقول الرّسول لتلميذه تيموثاوس:

"وأمّا أنت فاثبت على ما تعلّمت وأيقنت عارفاً ممّن تعلّمت، وأنّك منذ الطّفوليّة تعرف الكتب المقدّسة القادرة أن تحكّمك للخلاص بالإيمان الّذي في المسيح يسوع"(٢٩٨).

من ميّزات تلميذ المسيح إذن – المستعدّ كي يكون جنديّاً مكرّساً له – أنّه يعكف دائماً على قراءة الكتب المقدّسة. لكن قراءته هذه ترتبط دائماً بالثّبات على ما تعلّم وأيقن. وممّن سمع تيموثاوس وتعلّم أليس من بولس؟ وألا يعني هذا أنّ على تلميذ المسيح التمسّك بالوديعة أي بكلّ ما تسلّمته الكنيسة عن الرّسل – شفهيّاً كان أم مكتوباً – كي تكون معرفته للكتب المقدّسة قادرة أن تحكّمه للخلاص بالإيمان الّذي في المسيح يسوع؟

وفي الحقيقة إنّ الّذين انطبقت عليهم بامتياز صفات تلاميذ الرّسل الأمناء – منذ نشأة الكنيسة حتّى أيّامنا الحاضرة – هم الّذين سمّتهم الكنيسة آباءها القدّيسين. هؤلاء استطاعوا لا أن يرعوا ويعلّموا باستقامة فحسب، بل وأن يفسّروا، بحسب الحكمة المعطاة لهم، معاني كتب العهدين القديم والجديد، بكل ما فيها من أشياء عسرة الفهم، دون أن يحرّفوها، كما يفعل "غير العارفين وغير الثّابتين... لهلاك أنفسهم"(٢٩٩).

وقد استطاعوا ذلك لأنّهم "حفظوا الوديعة معرضين عن الكلام الباطل الدّنس ومخالفات العلم الكاذب الإسم الّذي إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان"(٣٠٠)؛ فعكفوا "على القراءة والوعظ والتّعليم" و لم يهملوا الموهبة الّتي فيهم(٣٠١). وإذ تمسّكوا

(٢٩٨) ٢ تيم ٣: ١٤ – ١٥
(٢٩٩) ٢ بط ٣: ١٦
(٣٠٠) ١تيم ٦: ٢٠
(٣٠١) ١ تيم ٤: ١٣

بصورة الكلام الصّحيح الّذي سمعوه من الرّسل "في الإيمان والمحبّة الّتي في المسيح يسوع"[٣٠٢] جاهدوا قانونيّاً، فتعبوا وصبروا "على كلّ شيء لأجل المختارين لكي يحصلوا هم أيضاً على الخلاص الّذي في المسيح يسوع مع مجد أبديّ"[٣٠٣]. باختصار اجتهدوا :أن يقيموا نفوسهم لله مزكّين عاملين لا يخزون مفصّلين كلمة الحقّ بالاستقامة"[٣٠٤].

إذن الصّفة العظمى الّتي ميّزت الآباء وسمحت لهم بأن يعلّموا ويفسّروا الكتب "ويفصّلوا كلمة الحقّ بالاستقامة"، هي أنّهم حفظوا "الوديعة الصّالحة بالرّوح القدس السّاكن فيهم"[٣٠٥]، ولا سيّما من خلال إيمانهم الحيّ بآيات الرّبّ واقواله، وحفظهم لوصاياه، فنفذوا إلى أعماق أسرار مواعيدها الّتي "أعلنها الله لهم بروحه"، وبالتّالي عرفوا أمور الله (الّتي) "لا يعرفها أحد إلاّ روح الله"[٣٠٦]. وبالطّبع فلم يتسنّ للآباء أن يصيروا معلّمين ويدركوا المعاني السّامية العميقة لكلمات الكتاب العسرة التّفسير حول المسيح "الّذي – بحسب الرّسالة إلى العبرانيّين – من جهته الكلام كثير عندنا وعسر التّفسير لننطق به"[٣٠٧]، إلاّ بعد أن "نموا وتقوّوا بالرّوح"، وصاروا بالغين قادرين على الطّعام القوي: "لأنّ كلّ من يتناول اللّبن هو عديم الخبرة في كلام البرّ لأنّه طفل. وأمّا الطعام القويّ فللبالغين الّذين بسبب التمرّن قد صارت لهم الحواس مدرّبة على التّمييز بين الخير والشرّ"[٣٠٨].

بتعبير آخر، فكما أنّ الرّسل حملوا صليبهم وتبعوا المسيح واقتدوا به[٣٠٩]، هكذا الآباء، تلاميذهم حملوا أيضاً صليبهم وتبعوا المسيح، وبالتّالي تبعوا "تعليمهم وسيرتهم وقصدهم وإيمانهم وأناتهم ومحبّتهم وصبرهم واضطهاداتهم وآلامهم"[٣١٠]. وكانت

(٣٠٢) ٢ تيم ١: ١٣
(٣٠٣) ٢ تيم ٢: ١٠
(٣٠٤) ٢ تيم ٢: ١٥
(٣٠٥) ٢ تيم ١: ١٤
(٣٠٦) ١ كور ٢: ١٠ – ١١
(٣٠٧) عب ٥: ١١
(٣٠٨) عب ٥: ١٣ – ١٤
(٣٠٩) ١ كور ١٠: ١١
(٣١٠) ٢ تيم ٣: ١٠

النّتيجة أنّهم مثلهم لم يأخذوا "روح العالم بل الرّوح الّذي من الله" (ليعرفوا) الأشياء الموهوبة (لهم) من الله" الّتي (تكلّموا) بها أيضاً لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانيّة بل بما يعلّمه الرّوح القدس قارنين الرّوحيّات بالرّوحيّات"[٣١١].

وبالتّأكيد، فالرّوح القدس الّذي أرسله الرّبّ يسوع وتكلّم في الرّسل "لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانيّة"، هو ذاته الّذي علّم الآباء القدّيسين أن يعلّموا ويفسّروا الكتب المقدّسة "قارنين الرّوحيّات بالرّوحيّات". وكما أنّ كلّ واحد من الرّسل تكلّم به الرّوح القدس فعبّر هو بأسلوبه المميّز، وبحسب مواهبه البشريّة الخاصّة؛ هكذا أيضاً فآباء الكنيسة الممتلئون من الرّوح تكلّموا وكتبوا وفسّروا الكتب، كلّ منهم بحسب مواهبه وأسلوبه وبلغة عصره واصطلاحاتها، "مخرجاً من كنزه – بحسب تعبير الرّبّ يسوع – جدداً وعتقاء"[٣١٢].

على هذا النّحو، وبناء على القليل الّذي وصل إلينا من كتابات الآباء، يمكننا القول إنّ هناك استمراريّة واضحة في الاتّجاهات التّفسيريّة ذاتها الّتي للرّسل. تشهد على ذلك مثلاً رسالة اكليمندس الرّوماني المكتوبة في أواخر القرن الأوّل، أو رسائل اغناطيوس الأنطاكي، أو كتابات يوستينوس الشّهيد أو إيريناوس أسقف ليون أو ثيوفيلوس أسقف أنطاكية في القرن الثّاني. وعلى الأغلب فكلّ هؤلاء الآباء الّذين ذكرناهم ومعاصريهم، وإن كانوا قد استشهدوا في مؤلّفاتهم بآيات أو نصوص من الكتاب المقدّس، وفسّروا ما استشهدوا به لأغراض تعليميّة أو دفاعيّة ضدّ الهراطقة أو اليهود أو الوثنيّين، إلاّ أنّ هدفهم الرّئيس لم يكن هو التّفسير بحدّ ذاته. وعلى ما يبدو فأوّل من ترك، من بين آباء الكنيسة الجامعة، مؤلّفات تفسيريّة بالمعنى الدّقيق للكلمة هو هيبوليتس الّذي عاش في أواخر القرن الثّاني وأوائل الثّالث. إذ كتب تفاسير لأجزاء كبيرة من الكتاب المقدّس وبخاصّة أسفار العهد القديم مثل سفر دانيال وسفر نشيد الأنشاد إلخ...

وهنا لا بدّ أن نشير إلى الدّور المهمّ الّذي لعبته المدارس اللاّهوتيّة في مجال تفسير الكتب المقدّسة، ولا سيّما مدرستا الإسكندريّة وأنطاكية. فقد بدأت المدرسة الأولى في القرن الثّاني وكان من بين معلّميها المشهورين بانتينوس واكليمنضوس الإسكندريّ

(٣١١) ١ كور ٢: ١٢ – ١٣
(٣١٢) مت ١٣: ٥٢

وأريجنّس، وديونيسيوس الإسكندريّ وديديموس الضّرير إلخ... وقد تبلورت فيها مستويات مختلفة في تفسير الكتب المقدّسة مثل التّفسير الحرفيّ الّذي يتوخّى التّوضيح التّاريخيّ للحوادث، أو التّفسير الأخلاقيّ الّذي يفتّش عن التّعليم الأخلاقيّ والعبرة الرّوحيّة، أو التّفسير الرّمزيّ الّذي يطلب المفاهيم الرّوحيّة العميقة وأسرار الحياة السّماويّة. ولتأثّر هذه المدرسة بالمحيط الثّقافيّ والفلسفيّ الّذي نشأت فيه ولا سيّما الأفلاطونيّ، فقد مالت عموماً إلى التّفسير الرّمزيّ والتّيبولوجي، وبالغ بعض معلّميها فيه وتطرّف إلى حدّ اعتبار أيّ شيء أو أيّ شخص ذكره الكتاب أنّه يشير إلى معان مجازيّة ويرمز لأمور روحيّة! ممّا أدّى إلى تشكّل تيّار قويّ ومعارض للرّمزيّة والمغالاة فيها، وحتّى في مصر نفسها.

أمّا مدرسة أنطاكية اللاّهوتيّة فقد تأسّست في القرن الثّالث وازدهرت في القرن الرّابع، وكان من معلّميها المشهورين لوقيانوس وديودورس الطّرسوسيّ وثيودورس الموبسوستيّ وثيودوريتس القورشيّ إلخ... وعلى النّقيض من مدرسة الإسكندريّة فقد مالت إلى التّفسير الحرفيّ التّاريخيّ والّذي يشدّد بخاصّة على التّدقيق في نصوص اللّغتين العبريّة واليونانيّة اللّتين كتب بهما الكتاب المقدّس أو ترجماته. على هذا النّحو تشبّت معلّموها إلى حدّ بعيد بالمعنى المباشر والظّاهريّ، معارضين بهذا التّفسير المجازي لكلام الكتاب بحجّة أنّه يبتعد عن المعنى الحقيقيّ المقصود في النصّ.

وعلى الرّغم من كلّ الخدمات القيّمة الّتي قدّمتها هاتان المدرستان اللاّهوتيّتان للكنيسة الجامعة وخاصّة في مجال تفسير الكتب المقدّسة، إلاّ أنّ ثمّة أخطاء أساسيّة انزلق فيها أقطاب من كلّ من المدرستين بدرجات متفاوتة، وأدّت إلى وقوع البعض منهم أو من تلاميذهم فيما بعد في مهاوي هرطقات مختلفة. من هذه الأخطاء التّشديد على أهمّيّة نوع واحد من التّفسير وإهمال أو رفض الأنواع الأخرى كما أسلفنا. لأنّه لا التّشبّث في كلّ نصّ بالمعنى الحرفيّ الظّاهريّ وحده، ولا التّحرّر منه ومن ثمّ الغوص وراء المعاني المجازيّة والرّمزيّة في جميع الأحوال يمكن أن يؤدّي إلى التّفسير الصّحيح لكلمة الله.

لكن الأخطر هو تصوّر البعض منهم أنّه عن طريق التّخيّل والمقايسات العقليّة والاستنباطات المنطقيّة، أو مجرّد اعتمادهم على الدّراسات اللّغويّة والتّاريخيّة أو على

قواعد معيّنة في التّفسير بإمكانهم وضع اليد على المفاهيم الحقيقيّة لنصوص الكتاب المقدّس أو اكتشاف أسرار الحياة الإلهيّة !. لقد نسوا أو تجاهلوا نصوص الكتاب الكثيرة نفسها والّتي من بين ما تعلن أنّ "معرفة أسرار ملكوت السّموات" غير متاحة لذوي القلوب الغليظة المظلمة، أو الآذان الثّقيلة السّماع أو العيون المغمّضة بإرادتها، حتّى ولو كان أصحابها من أعاظم الحكماء والفهماء. لأنّ "روح الحكمة والإعلان في معرفة الرّبّ يسوع" أعطيت لتلاميذه المؤمنين به والأمناء[٣١٣] الّذين صاروا أطفالاً بحسب نقاوة القلب[٣١٤]، "فاستنارت عيون أذهانهم". وهو ما يتّفق مع قوله الواضح: "أحمدك أيّها الآب ربّ السّماء والأرض لأنّك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال"[٣١٥].

من بين النّصوص الكتابيّة والّتي لم يعرها حينها الكثير من الدّارسين والمفسّرين الاهتمام الكافي هو تحذير بولس الرّسول لأهل كولوسي: "أنظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد النّاس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح"[٣١٦]. لأنّه بالفعل سبتهم بالفلسفة إلى حدّ بعيد، وأثّر عليهم تقليد النّاس حسب أركان العالم، فلم يثبتوا ويتمسّكوا بتقليدات (تسليمات) الرّبّ يسوع الّتي تعلّموها من الرّسل سواء كان بكلامهم أم بكتاباتهم[٣١٧]. وبالتّالي فلم يقدّموا التّفاسير الموافقة "لكلمات ربّنا يسوع المسيح الصّحيحة والتّعليم الّذي هو حسب التّقوى"[٣١٨].

على العكس من هؤلاء تمسّك الآباء القدّيسون بالتّقليدات المتسلّمة عن الرّسل وحدها، "محافظين على الوديعة الصّالحة بالرّوح القدس السّاكن فيهم"[٣١٩]. ومنهم من

(٣١٣) مت ١٣: ١٠ – ١٧
(٣١٤) مت ٥: ٨
(٣١٥) مت ١٣: ٢٥
(٣١٦) كول ٢: ٨
(٣١٧) ٢ تس ٢: ١٥
(٣١٨) ١ تيم ٦: ٣
(٣١٩) ٢ تيم ٢: ١٤

كان تتلمذ وحتّى لمعلّمين من المدرستين المذكورتين مثل القدّيسين ديونيسيوس الإسكندريّ وأثناسيوس الكبير وكيرلّس الإسكندريّ وإيسيدورس الفرميّ أو باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاّهوتيّ وغريغوريوس النّيصصيّ ويوحنّا الذّهبيّ الفمّ وكيرلّس الأورشليميّ إلخ. لكنّهم مع هذا ظلّوا بعيدين عن الهرطقات الّتي وقع فيها بعض معلّميهم أو زملائهم، لا بل نجّوا الكثيرين من معاصريهم والّذين أتوا بعدهم من أخطارها وتهلكاتها. فضلاً عمّا قدّموه للكنيسة من جدد أخرجوها من كنزهم بلغة عصرهم وبأسلوبهم الخاصّ، ومن بينهم من قدّم تفسيرات غنيّة وصحيحة لأغلب أسفار العهدين القديم والجديد.

٦. الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرّسوليّة كمفسِّرة للكتاب المقدّس

لم يخلق الله العالم، و لم يرسل ابنه الوحيد إلى العالم، و لم يرسل رسله للبشارة – كما أشرنا سابقاً – إلاّ لكي يبني الكنيسة الّتي صار هو رأسها وصارت هي جسده:

"... وأخضع كلّ شيء تحت قدميه وإيّاه جعل رأساً فوق كلّ شيء للكنيسة الّتي هي جسده ملء الّذي يملء الكلّ في الكلّ"[٣٢٠].

"وعلى هذه الصّخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"[٣٢١].

وأمّا بناء الكنيسة فيتمّ قبل كلّ شيء بانضمام الأعضاء إليها وولادتهم من فوق بالماء والرّوح[٣٢٢]. فلا يبقون "بعد غرباء ونُزُلاً بل رعيّة مع القدّيسين وأهل بيت الله"[٣٢٣]. لكن عمليّة البناء تستمرّ وتتواصل: "مبنيّين على أساس الرّسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزّاوية الّذي فيه كلّ البناء مركّباً معاً ينمو هيكلاً مقدّساً في الرّب"[٣٢٤]. ولنلاحظ هنا أنّ بولس الرّسول لم يقل مبنيّين على أساس الكتاب المقدّس بل استعمل عبارة على "أساس الرّسل والأنبياء". وكأنّه أراد بهذا أن يشير إلى الوديعة الّتي تسلّمتها

(٣٢٠) أف ١: ٢٢ – ٢٣
(٣٢١) مت ١٦: ١٨
(٣٢٢) يو ٣: ٣ – ٨
(٣٢٣) أف ٢: ١٩
(٣٢٤) أف ٢: ٢٠ – ٢١

الكنيسة من الرّسل والأنبياء ككلّ، والّتي لم تكن تسليماً مكتوباً فقط بل وشفهيّاً أيضاً بنيت عليه أوّلاً كلّ الكنائس الأولى بواسطة بشارة الرّسل وتعليمهم الشّفهيّ.

عن استمرار عمليّة البناء في الكنيسة يعبّر سفر أعمال الرّسل بهذه العبارة الشّاملة والموجزة، والّتي سبق وأشرنا إليها مراراً:

"وكانوا يواظبون على تعليم الرّسل والشّركة وكسر الخبز والصّلوات"(٣٢٥).

ما يهمّنا أن نشدّد عليه هنا هو أنّ عمليّة بناء الكنيسة هي بحدّ ذاتها عمليّة تفسير حيّ للكتاب المقدّس مستمرّة ومتواصلة عبر الأجيال. وبالطّبع فعمليّة التّفسير هذه لا تتمّ فقط عبر المواظبة على تقبّل وعيش تسليم الرّسل والآباء ومنه تفسيرهم لكتب الرّسل والأنبياء، بل وأيضاً من خلال شركة الكنيسة ذاتها، وكسر الخبز وباقي الأسرار الإلهيّة، وكذلك عبر صلوات الكنيسة وتراتيلها وحياة عبادتها بشكل عامّ. لأنّ حياة الإيمان المعاشة من الأعضاء في شركة الكنيسة الحيّة في مختلف أبعادها، هو نموّ لهم في الكمال والقداسة وبنيان لجسد المسيح، وبالتّالي اكتشاف أعمق لأسرار الحياة في المسيح. إكتشاف الأعضاء هذا إذن هو التّفسير الحيّ المعاش الّذي تقدّمه لهم حياتهم في الكنيسة للكلمات الّتي نطق بها الرّسل والأنبياء وتسجّلت في الكتب المقدّسة. يساعد على وصول هذا التّفسير الحيّ لسائر الأعضاء عمل الخدمة الّذي يقوم به من حصلوا على نعم من العلى من "الصّاعد فوق جميع السّموات"، مثل الرّسل والأنبياء والمبشّرين والرّعاة والمعلّمين، لبنيان جسد المسيح:

"الّذي نزل هو الّذي صعد أيضاً فوق جميع السّموات لكي يملأ الكلّ. وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً والبعض أنبياء والبعض مبشّرين والبعض رعاة ومعلّمين لأجل تكميل القدّيسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح"(٣٢٦).

ولتوضيح الأمر أكثر نذكّر بالهدف الرّئيس من قراءة الكتاب المقدّس وتفسيره – ممّا سبق وتكلّمنا عنه أعلاه – وهو الإيمان بأنّ يسوع هو المسيح ابن الله(٣٢٧)، والّذي يؤدّي

(٣٢٥) أع ٢: ٤٢

(٣٢٦) أف ٤: ١٠ – ١٢

(٣٢٧) يو ٢٠: ٣١؛ مت ١٦: ١٥ – ١٧

في حال نموّه إلى الحياة الأبديّة عن طريق معرفة الآب بالابن في الرّوح القدس، الإله الواحد الحقيقيّ وحده[٣٢٨]. وبالطّبع فهؤلاء الّذين ينمون في هذا الإيمان هم أعضاء الكنيسة الّذين "حلّ المسيح بالإيمان في قلوبهم وهم متأصّلون ومتأسّسون في المحبّة حتّى يستطيعوا أن يدركوا مع جميع القدّيسين ما هو الطّول والعمق والعلوّ ويعرفوا محبّة المسيح الفائقة المعرفة لكي يمتلئوا إلى كلّ ملء الله"[٣٢٩]. لذلك من البديهيّ أن يكون الهدف الرّئيس من انتماء الأعضاء إلى الكنيسة وشركتهم فيما بينهم ونموّهم وبنيانهم كجسد واحد لرأس واحد هو المسيح:

"إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانيّة الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى قياس قامة ملء المسيح... بل صادقين في المحبّة ننمو في كلّ شيء إلى ذاك الّذي هو الرّأس المسيح الّذي منه كلّ الجسد مركّباً معاً ومقترناً بموازرة كلّ مفصل حسب عمل على قياس كلّ جزء يحصل نموّ الجسد لبنيانه في المحبّة"[٣٣٠].

وهنا نسأل كيف يمكن أن ينتهي الجميع إلى وحدة الإيمان في معرفة ابن الله إن لم يكونوا أصلاً منتمين إلى كنيسة واحدة ذات إيمان واحد بحسب تشديد بولس الرّسول نفسه:

"جسد واحد وروح واحد كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد. ربّ واحد إيمان واحد معموديّة واحدة إله وآب واحد للكلّ الّذي على الكلّ وبالكلّ وفي كلّكم"[٣٣١].

ومن هي هذه الكنيسة الواحدة ذات الإيمان الواحد، إن لم تكن الكنيسة الواحدة الّتي بناها الرّبّ يسوع على "أساس الرّسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزّاوية"[٣٣٢]، أي على أساس الوديعة الصّالحة الّتي تسلّمتها هذه الكنيسة من رسل المسيح وأنبيائه وحافظت عليها وهي بشارتهم "وتعليمهم الصّحيح"، الشّفهيّ والمكتوب؟

---

(٣٢٨) يو ١٧: ٣ و ١٤: ١٥ – ٢١

(٣٢٩) أف ٣: ١٧ – ١٩

(٣٣٠) أف ٤: ١٣ و ١٥ – ١٦

(٣٣١) أف ٤: ٤ – ٥

(٣٣٢) أف ٢: ٢٠

وكيف يمكن أن يفسّر الكتاب المقدّس تفسيراً صحيحاً، يتّفق مع تسليم الرّسل ويوصل إلى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله، من لم يكن في وحدة إيمان وشركة مع الكنيسة الّتي تسلّمت من الرّسل تعليمهم وتفسيرهم للكتاب المقدّس "وشركتهم مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح"(٣٣٣) والأسرار الإلهيّة والصّلوات؟

وأليس من الطّبيعيّ بالنّسبة للّذين يرفضون تسليم الكنيسة وحياتها الإلهيّة، ويتركون تفسير الكتاب المقدّس تحت رحمة الاجتهادات الشّخصيّة والأفكار الّتي تتلاعب بها أهواء النّاس، أن لا ينتهوا – كما يعبّر الرّسول بولس – "إلى وحدانيّة الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسان كامل. إلى قياس قامة ملء المسيح"؟ بل إلى أن يكونوا: "أطفالاً مضطّربين ومحمولين بكلّ ريح تعليم بحيلة النّاس بمكر إلى مكيدة الضّلال"؟(٣٣٤).

أمّا الّذين يفسّرون الكتاب المقدّس، وهم خارج إيمان كنيسة المسيح وحياتها، استناداً إلى دراسات يقومون بها، فهم غالباً ينطلقون في تحليلهم لنصوصه من رفضهم المسبق للإيمان وللآيات الفائقة الطّبيعة الّتي يتحدّث عنها، معتبرين إيّاها مجرّد نصوص أدبيّة بشريّة، لا إلهيّة ولا روحيّة ولا كنسيّة.

ألا ينطبق على هؤلاء كلام الرّسول بولس: "ولكن الإنسان الطّبيعيّ (النّفسانيّ) لا يقبل ما لروح الله لأنّه عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنّه إنّما يُحكم فيه روحيّاً. وأمّا الرّوحيّ فيحكم في كلّ شيء وهو لا يُحكم فيه من أحد. لأنّه من عرف فكر (ذهن) الرّبّ فيعلّمه. وأمّا نحن فلنا فكر (ذهن) المسيح"(٣٣٥).

على أساس كلّ ما تقدّم، يمكننا القول إنّه ليس من فصل – بحسب الكتاب المقدّس – بين تفسير معانيه وبين اكتشاف أسرار هذه المعاني من خلال عيشها في الكنيسة الّتي تسلّمتها من الرّبّ يسوع وبنيت عليها. وبالتّالي لا يمكن لأحد أن يعرف هذه المعاني أو يفسّرها بطريقة صحيحة إلاّ إذا أتيح له أن يكتشفها من خلال الإيمان في الرّوح القدس، كعضو حيّ في جسد المسيح، مستقيم الرّأي، مجاهد ضدّ الخطيئة، حافظ للوصايا وعلى رأسها المحبّة.

---

(٣٣٣) ١ يو ١: ٣

(٣٣٤) أف ٤: ١١ – ١٤

(٣٣٥) ١ كور ٢: ١٤ – ١٦

وبالنّتيجة فالكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرّسوليّة، هي وحدها المفسّرة باستقامة رأي للكتب المقدّسة. لأنّها هي وحدها الّتي تسلّمت من الرّبّ يسوع، ومن رسله، ومن تلاميذهم آبائها القدّيسين، التّعليم الصّحيح والتّفاسير الصّحيحة للكتب المقدّسة. ولأنّها هي وحدها "جسد المسيح ملء الّذي يملأ الكلّ في الكلّ"[٣٣٦]، الّذي يملأها ويبنيها باستمرار من أجل تحقيق الهدف الرّئيس الّذي وعدها به، بحسب الكتاب المقدّس.

٧. أين يمكننا أن نجد تسليم الكنيسة، وبالتّالي تفاسير الرّسل والآباء للكتاب المقدّس؟

وأخيراً، وبعد أن وصلنا إلى الفقرة الأخيرة من هذا البحث، لا بدّ أن نطرح السّؤال الأخير، والّذي من المرجّح أنّ عديدين يودّون أيضاً أن يطرحوه: إن كانت الوديعة الّتي تسلّمتها الكنيسة عن الرّسل هي شفهيّة ومكتوبة معاً، وقد حفظت المكتوبة منها (أي الكتاب المقدّس)، فأين ضاعت وديعة الرّسل الشّفهيّة، والّتي هي أوسع بما لا يقاس من المكتوبة، ومعها تفسير ما غمض من كلمات الوديعة المكتوبة؟

للجواب على السّؤال لا بدّ من التّذكير أوّلاً بما سبق وشدّدنا عليه مراراً أنّ الكنائس كلّها قد بنيت أساساً على البشارة الشّفهيّة الّتي قبلتها، وكانت ولا تزال تقوم فيها وبها أيضاً تخلص[٣٣٧]. معنى هذا أنّ تسليم الرّسل الشّفهيّ – كما المكتوب فيما بعد – قد دخل منذ البدء في صلب حياة الكنيسة، وساعد بالتّدريج على تشكيل تعابير شتّى عن هذه الحياة في سائر أوجهها، وبحسب الاحتياجات والظّروف التّاريخيّة الّتي واجهتها. لهذا إنّ بحثنا عن تسليم الكنيسة يمكننا أن نجده في التّعابير المنوّعة عنه، والّتي تسجّلت بطرق مختلفة، منها التّالية:

١– ما بقي محفوظاً في الكنيسة من دساتير قديمة للإيمان استعملتها الكنائس الأولى للتّعليم وخاصّة حين المعموديّة، أو ترتيبات متسلّمة عن الرّسل دخلت في القوانين الكنسيّة مثل القوانين الرّسوليّة الخمسة والثّمانين، أو كتابات حرص أصحابها على أن يكون فحواها الأساسيّ متسلّماً عن الرّسل مثل "تعليم الرّسل الإثني عشر".

٢– مصادر قديمة وراء سير وأقوال شهداء ومعترفين وقدّيسين.

(٣٣٦) أف ١: ٢٣

(٣٣٧) ١ كور ١٥: ١ – ٢

٣– كتب تاريخ الكنيسة القديمة والّتي سجّلت حوادث كثيرة عبرت بها مسيرة حياة الكنيسة على الأرض، ومنها تأريخ لهرطقات ومجامع.

٤– التّحديدات العقائديّة والقوانين الكنائسيّة للمجامع المسكونيّة السّبعة، ومعها المجامع المكانيّة الّتي وافقت عليها المجامع المسكونيّة. من وجهة نظر تاريخيّة يهمّ بخاصّة ما حفظ من تسجيل لجلسات محاضر هذه المجامع. من وجهة نظر عقائديّة يهمّ كثيراً ما حملته التّحديدات العقائديّة لهذه المجامع من إيمان مستقيم متسلّم عن الرّسل، وإن صيغ بلغة جديدة تتناسب مع العصر ومع الرّدّ على الهرطقات الّتي انعقدت المجامع من أجل دحضها.

٥– كتب الخدم الطّقسيّة (اللّيتورجيا): في هذه الكتب نجد وديعة الكنيسة الشّفهيّة والمكتوبة مصاغة من خلال الصّلوات والتّراتيل والنّصوص الكتابيّة، المرتّبة بحسب الأعياد والمواسم والمناسبات الكنسيّة.

٦– الفنون المسيحيّة: ويقصد بها مختلف الأعمال الفنّيّة المعبّرة عن إيمان الكنيسة وروحانيّتها من إيقونات وشعر وموسيقى وعمارة وأدوات كنسية إلخ...

٧– كتابات الآباء القدّيسين: وهي تراث ضخم ومتنوّع كتبه عدد كبير من آباء الكنيسة ومعلّميها، تكلّم بهم روح الله فعبّروا بأساليب مختلفة عبر أزمنة متفاوتة عن الإيمان الواحد الّذي سلّمه الرّبّ يسوع لتلاميذه. أمّا بخصوص تفسير الكتب المقدّسة، فلقد ترك لنا العديد من هؤلاء الآباء كتباً كثيرة وقيّمة تفسّر أسفاراً مختلفة من العهد القديم أو الجديد. إلاّ أنّ جميع ما ذكر أعلاه من تراث حامل لتسليم الرّسل بطريقة أو بأخرى، هو بحدّ ذاته – وإن يكن بصورة غير مباشرة – تفسير وتوضيح للمعاني والمخبآت الّتي تضمّنتها كلمة الله في الأسفار الإلهيّة.